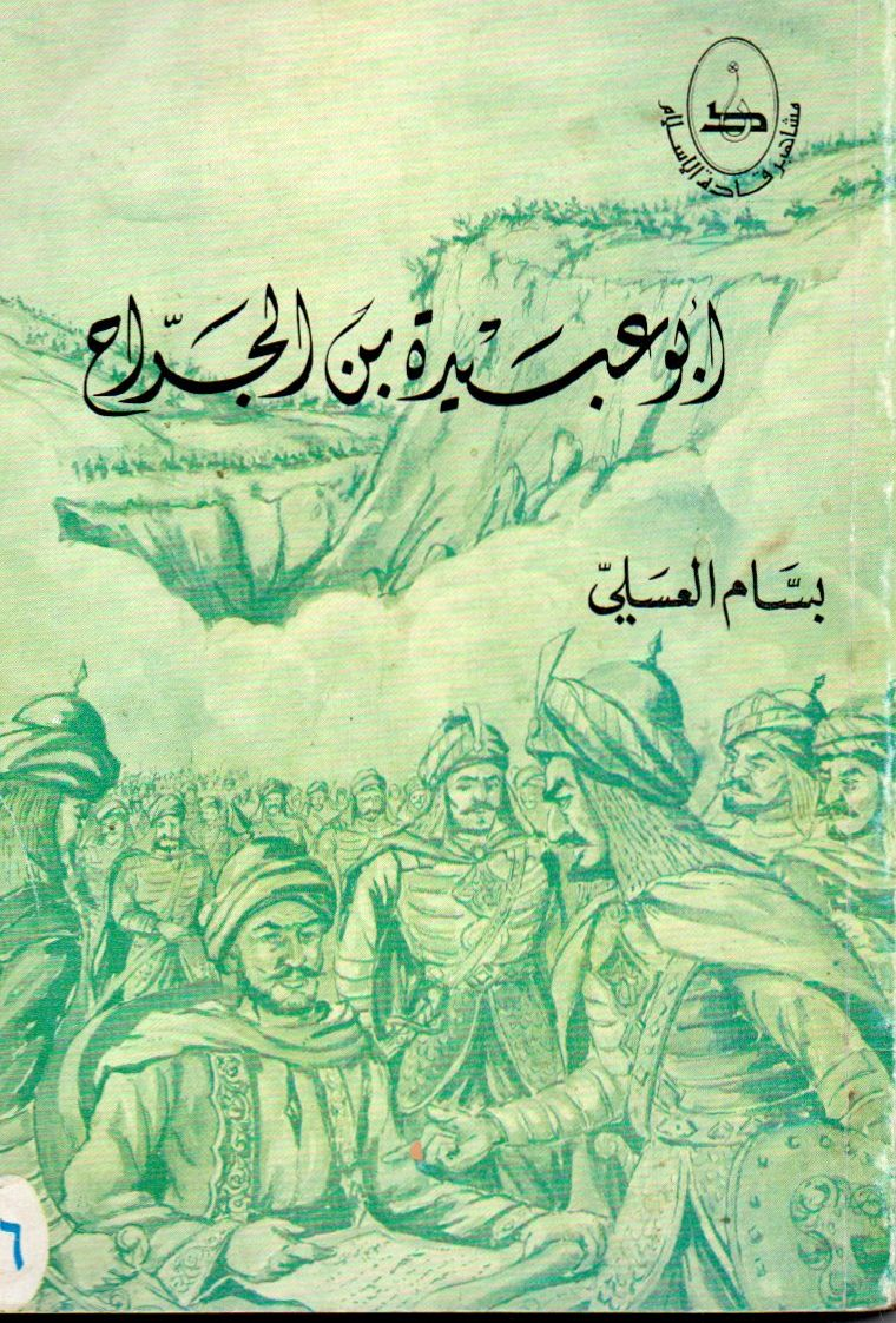

مشاهير قادة الإسلام
أبو عبيدة بن الجرّاح
بسّام العسلي



أبو عبيدة بن الجرّاح

بسّام العسليّ

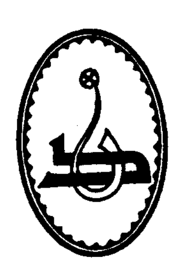
دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٩٧٨ م
الطبعة الخامسة : ١٩٨٤ م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقيًا : دانفايسكو

تصميم الغلاف : بريشة الفنان خالد العسلي



أبو عبيدة بن الجراح



أبو عبيدة في كلمات

قال رسول الله ﷺ « لكل أمة أمين ؛ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[1] وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : « أصبح الناس وجوهاً وأحسنهم خلقاً وأشدهم حياء ثلاثة : أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة »[2] وعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام — ١٥ هـ — تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : « أين أخي ؟ » فقالوا : من ؟ قال : « أبو عبيدة ! » قالوا : « يأتيك الآن » ! ... فجاء أبو عبيدة على ناقة مخطومة بحبلٍ ، فسلم عليه ، فقال عمر للناس : « انصرفوا عنا ! » ثم التفت إلى أبي عبيدة ؛ وقال له : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة » . فقال له : « وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ ! » ودخل عمر فلم ير في البيت شيئاً — إلا سيفه وترسه — فقال عمر : « فأين متاعك ؟ لا أرى إلا لبداً وصفحة وشناً — والشن القربة

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ٧/٧٣ و ٨/٧٤ .

(٢) الاصابة ٤/١٣ .

الخلق – وأنت أمير ! أعندك طعام ؟ » فقام أبو عبيدة إلى جونة – سلة مستديرة – فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ؛ فقال له أبو عبيدة : « قلت لك إنك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين ! يكفيك من الزاد ما بلغك المحل !! » فقال عمر : « غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة » ! [1]

وفي عام ١٨ هـ ؛ انتشر الوباء – طاعون عمواس – في الشام ؛ وأراد « عمر بن الخطاب » أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الوباء بعد اشتداده ؛ فكتب إليه : « سلام عليك . أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ، ألا تضعه من يدك حتى تقبل » فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر ؛ فكتب إليه : « يا أمير المؤمنين . قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ؛ فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه ؛ فخلني من عزيمتك » . ومات أبو عبيدة بالطاعون ورثاه « معاذ بن جبل الانصاري الخزرجي » بقوله : « إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله إني رأيت من عباد الله قط أقل حقداً ؛ ولا أبر صدراً ؛ ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا أنصح للعامة عنه ؛ فترحموا عليه » [2] وقال عنه أمير المؤمنين عمر : « أتمنى – لو كان

---

(١) أسد الغابة – ابن الأثير – ٨٦/٣ .

(٢) الاصابة في تمييز الصحابة – العسقلاني – ١٢/٤ – ١٣ .

لي – بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح . . . ولو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لأستخلفته وما شاورت ؛ فان سئلت عنه قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله »[1].

وقال – أبو عبيدة – عن نفسه : « وددت أني كبش ؛ فذبحني أهلي ؛ فأكلوا لحمي وحسوا مرقي »[2] وقال : « ألا رُب مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه ! ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين غداً ! إدفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات » . وبلغ معاذ بن جبل أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة – أيام حصار « دمشق » ورجح « خالد بن الوليد » فغضب « معاذ » وقال : « أبأبي عبيدة يُظن ؟! فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة ؟! ... والله إنه لمن خير من على الأرض »[3] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٤١٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣/٤١٣ .

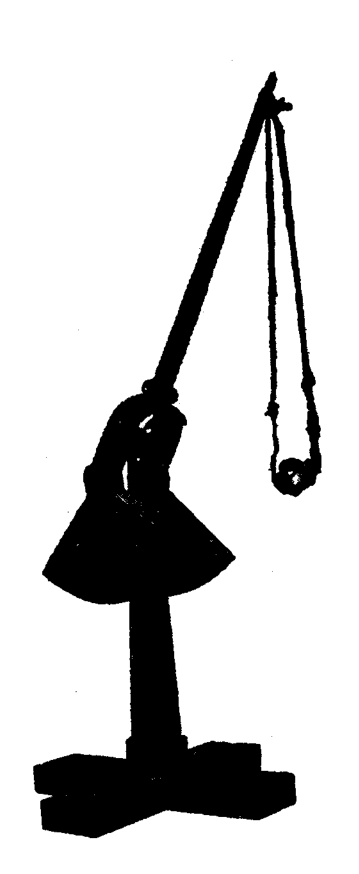
(٣) الاصابة ٤/١٢ وطبقات ابن سعد ٣/٤١٤ .

الوجيز في حياة « أبو عبيدة بن الجراح »

جدول توقيت الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الحدث
٤٠ ق. هـ	٥٨٤	ولادة « أبو عبيدة بن الجراح » .
٢ ق . هـ	٦٢٠	الهجرة إلى الحبشة « الهجرة الثانية » .
١ هـ	٦٢٢	الهجرة إلى المدينة .
٢ هـ	٦٢٣	موقعة « بدر الكبرى » وقتل « أبو عبيدة » المسلم لأبيه « المشرك » .
٣ هـ	٦٢٤	موقعة أحد ؛ وفيها نزع « أبو عبيدة » بأسنانه حلقتين غرزتا في وجه الرسول .
٦ هـ	٦٢٧	قيادة سرية « ذي القصة » .
٨ هـ	٦٢٩	قيادة قوة الدعم في غزوة «ذات السلاسل».
٨ هـ	٦٢٩	« غزوة الخبط » .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١١هـ	٦٣٢	وفاة الرسول الاعظم ﷺ ؛ والبيعة لأبي بكر .
١٣	٦٣٤	موقعة اليرموك .
١٤	٦٣٥	وفاة الخليفة أبو بكر ؛ وولاية أمير المؤمنين عمر ؛ وتعيين « أبو عبيدة » قائداً لقوات المسلمين في الشام .
١٤	٦٣٥	فتح دمشق ؛ وغزوة فحل ؛ وموقعة « مرج الروم » .
١٥	٦٣٦	فتح بعلبك ؛ وفتح حمص ؛ وقنسرين ، وحلب .
١٦	٦٣٧	فتح انطاكية ؛ واللاذقية ؛ ومدن الساحل .
١٧	٦٣٨	فتح بيت المقدس ؛ واحباط هجوم الروم ضد حمص ؛ وفتح الجزيرة وغزوات ما وراء الدروب .
١٨	**٦٣٩**	**وفاة « أبو عبيدة » في فحل من الأردن ؛ ودفنه « ببيسان » .**



الفصل الأوّل

شخصية «أبو عبيدة» وحروبه

- أبو عبيدة بن الجراح.
- الموقف العام.
- الطبيعة الجيو - استراتيجية.
- موقف الروم «البيزنطيين».
- أبو عبيدة في الشام.
- وقعة «مرج الروم».
- فتح «بعلبك» و«حمص» و«قنسرين».
- فتح «حلب» و«انطاكية» وغيرهما من العواصم.
- فتوح الساحل.
- هجوم الروم حتى حمص واحباطه.
- فتح الجزيرة.
- غزوات «ما وراء الدروب».
- النهاية.



أبو عبيدة بن الجراح

« ... لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمراً ، فأنت سيد المسلمين لا ينكر فضلك ، ولا نستغني عن رأيك » .

(خالد بن الوليد)

لم يكن حدثاً أو غراً يوم أقبل على الايمان ؛ حتى يقال أنه غرر به ؛ فقد أشرف على الأربعين من عمره ؛ وبلغ مرحلة النضج ؛ ولهذا فقد أقبل على الايمان بعقله وقلبه ، وأسلم ؛ والمسلمون قلة مستضعفون في الأرض ؛ يناصبهم العداء كل من حولهم ؛ ويكيد لهم كل من عرفهم أنهم آمنوا وأسلموا . ولم يكن – وهو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام – يطمح إلى قيادة جيوش فتح الشام ؛ أو يطمع في ممارسة قيادة تتبدل لها طبيعة الدنيا ؛ وينقلب لها وجه التاريخ . كان كل هدفه – من الحياة – أن يقضي ما بقي من رحلة العمر ؛ في نصرة الحق الذي حمله الدين الجديد ؛ وتجنب التعذيب والبلاء ممن آلوا

على أنفسهم التصدي لرسالة السماء ؛ ومحاولة اطفاء نور الله بألسنتهم وأيديهم . فهاجر إلى الحبشة مع من حملتهم ريح « الهجرة الثانية » ولكنه لم يلبث أن عاد إلى « مكة المكرمة » ليقف إلى جانب الرسول الاعظم ﷺ وليناصره ويؤيده ؛ ويخلص له في القول والعمل . وعرف فيه الرسول نموذجاً للايمان ، ومثالاً للاسلام ، وعرف فيه أيضاً خصائص وطباعاً ما عرفها في غيره – كالاخلاص والتجرد والصدق والامانة وغيرها من الفضائل – وكان المسلمون من تلاميذ مدرسة الاسلام كلهم نماذج في هذه الفضائل ؛ فكان ظهوره عليهم انما يعني انه فوق الفضائل كلها . ولهذا « أحبه الرسول وقربه » وأطلق عليه « أمين الأمة » .

ذلك هو « أبو عبيدة بن الجراح » [1] الذي سار في طريق الاسلام منذ بدايته . ولما أذن الرسول بالهجرة إلى المدينة ؛ هاجر «أبو عبيدة» مع من هاجر من المسلمين اليها . فآخى النبي بينه وبين سعد بن معاذ [2] . وفي السنة الثانية للهجرة ؛ حدثت موقعة « بدر الكبرى » . وقاتل فيها « أبو عبيدة » بشجاعة ؛ وتصدى له والده – وكان في صف المشركين – يريد قتله ؛

---

(١) أبو عبيدة : هو عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري وأمه أميمة بنت غنم طبقات ابن سعد ٣/٤٠٩ والاصابة ٤/١١ ولد سنة ٤٠ ق . هـ = ٥٨٤ م. وتوفي سنة ١٨ هـ = ٦٣٩ م .

(٢) وفي طبقات ابن سعد ٣/٤١٠ أنه آخى بينه وبين سالم مولى أبي حذيفة ، وفي رواية بينه وبين محمد بن مسلمة .

و « أبو عبيدة » يحيد عنه ؛ فلما أكثر قصده وقتَلَهُ .

فنزل فيه قوله تعالى : « لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورسولَهُ ؛ ولو كانُوا آباءَهُم أو أبناءَهُمْ أو إخوانَهُمْ أو عشيرَتَهُمْ ؛ أولئكَ كَتَبَ في قلوبِهِمُ الإيمَانَ وأيَّدَهُم بِرُوحٍ منهُ ؛ ويُدْخِلُهُم جنّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ؛ رضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عنهُ ، أولئِكَ حِزْبُ اللهِ ، ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلِحُون » (١) . وفي السنة التالية حدثت وقعة « أحد » وفيها « أبلى أبو عبيدة » أحسن البلاء ؛ وصمد حين تفرق الناس ؛ وأسرع إلى الرسول يقف إلى جانبه في قلة من الأصحاب ويذكر « أبو بكر الصديق » ما كان من أمر « أبي عبيدة » في ذلك اليوم فيقول : « لما كان يوم – أُحُدْ – ورمي رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلْقتان من المغفر – الدرع من الزرد – فأقبلتُ أسعى إلى الرسول : وإنسانٌ قد أَقْبَلَ من قبل المشرق يطير طيراناً ، فقلتُ : اللّهم اجعله طاعة ؛ حتى توافينا إلى رسول الله ﷺ ؛ فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بَدَرني ؛ فقال : أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله ؛ فتركته ؛ فأخذ أبو عبيدة بثنيته – أحد قواطعه الاربعة – وأمسك باحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره ؛ وسقطت ثنيةٌ (قاطع)

---

(١) سورة المجادلة / الآيه ٢٢ .

أبي عبيدة ، ثم أخذ الحلقة الأُخرى بثنيته الأخرى ؛ فسقطت : فكان أبو عبيدة في الناس أثرم) [1] وفي السنة السادسة للهجرة ؛ (أسرى رسول الله ﷺ سرية « أبي عبيدة بن الجراح » إلى « ذي القصة » في شهر ربيع الآخر في أربعين رجلاً ؛ فساروا ليلتهم مشاة ؛ ووافوا « ذا القصة » مع عَماية الصُبح ؛ فأغاروا عليهم ؛ فأعجزوهم هرباً في الجبال ، وأصابوا نعماً ورجلاً واحداً ؛ فأسلم ؛ فتركه رسول الله ﷺ [2] .

وفي السنة الثامنة للهجرة وجه الرسول سرية بقيادة « عمرو بن العاص » إلى أرضي « بلي » و « عذره » في غزوة « ذات السلاسل » ووجد « عمرو بن العاص » أن قوة أعدائه كبيرة ؛ فأرسل إلى الرسول ﷺ يستمده ؛ فأرسل إليه الرسول (قوة من المهاجرين الأولين وفيها أبو بكر وعمر وبقيادة « أبا عبيدة بن الجراح » وقال الرسول لأبي عبيدة حين وجهه « لا تختلفا » فخرج « أبو عبيدة » حتى إذا قدم على « عمرو بن العاص » قال له « عمرو » : إنما جئت مدداً لي ؛ فقال له أبو عبيدة : « يا عمرو » إن رسول الله قد قال لي : لا تختلفا ؛ وأنت إن عصيتني أطعتُك ، قال : فأنا أميرٌ عليك ؛ وإنما أنت مددٌ لي ، قال : فدونَك ! فصلى عمرو بن العاصَ بالناس) [3]

وفي هذه السنة ذاتها قاد « أبو عبيدة بن الجراح » سرية من

---

(١) طبقات ابن سعد ٤١٠/١٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٦٤١/٢ .

(٣) الطبري ٣٢/٣ .

المهاجرين والأنصار تضم ثلاثمائة مقاتل في « غزوة الخبط »[١]
(وسار « أبو عبيدة » في اتجاه « جهينة » – بالقبلية – وبينها وبين المدينة خمس ليال ؛ وأصاب المسلمون جهد كبير حتى اقتسموا التمر عدداً . وحتى أكلوا الخبط ثلاثة أشهر ؛ ونحر لهم « قيس بن سعد » تسع ركائب . ثم نهاه « أبو عبيدة » . وخرجت دابة من البحر يقال لها « العنبر » – نوع من الحيتان الضخمة – فمكث المسلمون عليها ثلاثة أيام يأكلون منها ويقددون ويغرفون شحمها . ثم انصرف «أبو عبيدة» بالمسلمين دون أن يلقوا كيداً)[٢]. وفي السنة الثامنة للهجرة ؛ أقدم الرسول ﷺ على « فتح مكة » (وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب « لمكة » بين يدي الرسول)[٣].
وجاء وفد « نجران » إلى الرسول ﷺ وقالوا له : « ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضاً » فقال لهم رسول الله ﷺ : « ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين » فكان « عمر ابن الخطاب » يقول : « ما أحببت الامارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ،

---

(١) الخبط : ورق العضاة من الطلح ونحوه ، يخبط ويضرب بالعصا فيتناثر ثم يعلف به الإبل ؛ وسميت هذه الغزوة بغزوة الخبط ؛ لأنهم أكلوا الخبط حتى كأن أشداقهم أشداق الابل .
(٢) الطبري ٣/٣٣ .
(٣) المرجع السابق ٣/٥٧ .

فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ، سلم ثم نظر يمينه ويساره ، فجعلت أتطاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى « أبا عبيدة بن الجراح» ؛ فدعاه ؛ فقال: « اخرج معهم فاقضِ بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : « فذهب بها أبو عبيدة » [١] .

ومضى الرسول للقاء ربه في بداية السنة ١١ للهجرة ؛ وبينما المسلمون منصرفون لمصابهم ؛ علم « أبو بكر » أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة « بني ساعدة » لمبايعة « سعد بن عبادة » فخرج « أبو بكر » للاجتماع بهم ؛ ولقي « عمر بن الخطاب » و « أبي عبيدة بن الجراح » . ومضى الثلاثة مسرعين إلى « السقيفة » . وكاد يحدث خلاف ؛ فوقف أبو عبيدة في الناس وقال : (يا معشر الأنصار ؛ إنكم أول من نصر وآزر ؛ فلا تكونوا أول من بَدَّلَ وغيّر) وقال أبو بكر : (هذا عمر ؛ وهذا أبو عبيدة ؛ فأيهما شئتم فبايعوا . فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ؛ فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ؛ وخليفة رسول الله على الصلاة ؛ والصلاة أفضلُ دين المسلمين ؛ فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! ابسط يدك نبايعك . وكانت البيعة) [٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢١٥ – ٢١٦ .

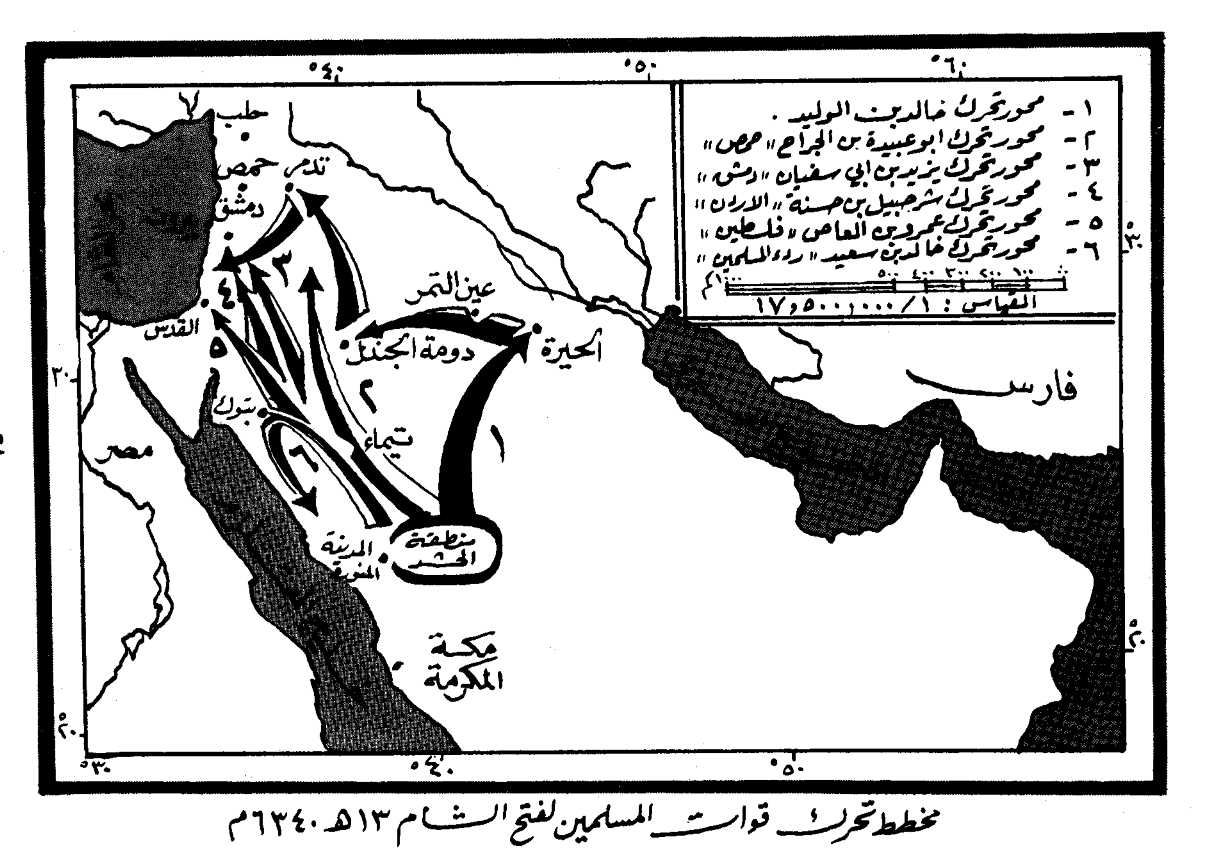
(٢) تاريخ الطبري ٣/٢١٩ و ٢٢١ .

ووقف « أبو عبيدة » بعد ذلك إلى جانب « الصديق » يخلص له النصح بمثل ما كان يخلصه للرسول ؛ ويعمل على جمع كلمة المسلمين ، حتى إذا ما « انتهت حروب الردة » وعادت للعرب المسلمين وحدتهم أخذ « الصديق » في تجهيز الجيوش « لفتح الشام » والعراق . وكان من نصيب « أبا عبيدة » قيادة جيش من جيوش فتح « الشام » .

تظهر المواقف السابقة مجموعة من المميزات القيادية التي كونت « شخصية أبي عبيدة بن الجراح » . وهي مميزات ستظهر بوضوح أكبر عند ممارسة الاعمال القيادية الكبرى في « الفتح » وستبرز هذه المميزات – بصورة خاصة – من خلال التحديات التي جابهت قوات العرب المسلمين وقياداتهم أمام جيوش عريقة في تنظيمها ؛ غنية بخبراتها ؛ وفيرة في عددها ؛ قوية في عدتها . وقد يكون من السابق لأوانه – هنا – عرض تلك المميزات ، أو ابراز خصائص قوات المسلمين ونقاط قوتها ؛ أو شرح أسس السياسة الاستراتيجية التي تم تطبيقها ؛ ولكن من المهم الاشارة إلى نقطة واحدة – والبحث متعلق بالقائد أبو عبيدة بن الجراح – وهي الدور الذي مارسه لا كقائد ؛ ولا كجندي مقاتل ؛ وانما كنموذج للانسان القائد المقاتل والمؤمن المسلم ، فكان بذلك مصدر إشعاع لمن حوله ، وقدوة مثلى لأقرانه ومرؤوسيه ؛ ولعله في ذلك أفضل من يمثل المقولة الشهيرة « ان الحياة في حاجة لقلوب كبيرة أكثر مما هي في حاجة لعقول كبيرة » وقد اجتمع للقائد أبي عبيدة كلاهما : العقل الراجح ؛ والقلب الكبير ؛ فكان بدهياً له أن يسيطر على عقول الناس وقلوبهم ؛ وكان في ذلك « النصر » .

الموقف العام :

كان « الروم » ـــ البيزنطيون ـــ أو « بنو الاصفر » كما كان يسميهم « العرب المسلمون » هم القوة التي ، تتهدد قاعدة المسلمين في الجزيرة العربية ؛ وكان ذلك سبباً في توجيه الغزوات الاستطلاعية والحملات الوقائية إلى أطراف الجزيرة في عهد رسول الله ﷺ . فكانت غزوة « دومة الجندل » في السنة الرابعة للهجرة ؛ وكانت غزوة « ذات أطلاح ؛ بعدها . ثم كانت « غزوة مؤتة » في السنة الثامنة للهجرة ؛ وتبعتها غزوة « ذات السلاسل » . وجاءت « غزوة تبوك » أو « غزوة العسرة » في السنة التاسعة للهجرة ؛ وحشد الرسول في هذه الغزوة ٣٠ ألف مقاتل ، وقاد الغزوة بنفسه حتى « إيلة » « القدس » . وعندما توفي الرسول ؛ كان على وشك توجيه الغزوة السادسة بقيادة « أسامة بن زيد » لغزو « يبنى وابل الزيت » . وانتفضت الجزيرة ؛ واهتزت من أقصاها إلى أقصاها ؛ وأصبح المسلمون قلة « تكاد تتخطفهم الطير » . وحاول بعض الصحابة ـــ وعلى رأسهم « عمر بن الخطاب » اقناع الخليفة « أبي بكر » بالاحتفاظ بجيش « أسامة » ولكن



مخطط تحرك قوات المسلمين لفتح الشام ١٣هـ ٦٣٤م

موقف الخليفة كان حازماً . عندما أجاب « ابن الخطاب » فقال له : « ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ؛ استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه ؛ والذي لا إله إلا هو ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ؛ ولا حللت لواء عقده رسول الله »[1]. ولقد كان لهذه الغزوة الاستطلاعية نتائج كبيرة ؛ إذ كانت بمثابة « هجوم إجهاضي » أو « هجوم وقائي » بمفهومه الحديث . وأعاقت الروم عن التدخل في شؤون الجزيرة خلال أخطر فترة مرت بها جزيرة العرب ؛ واستطاع الخليفة تركيز الجهد للحرب الأهلية التي أشعل نارها المرتدون ؛ ومضت السنة الحادية عشرة للهجرة في حروب داخلية صعبة استنزفت كثيراً من قدرة العرب المسلمين ؛ ولكن تلك التضحيات كانت من الامور الطبيعية لاقامة كيان داخلي قوي وسليم يمكن له مجابهة التحديات الخارجية .

كانت المشكلة الأساسية بالنسبة للعرب المسلمين هي اختيار الاسلوب الملائم للتعامل مع الروم لا سيما وأن التعامل الطويل مع هؤلاء ؛ وخضوع العرب الطويل للروم قد ترك في نفوس العرب نوعاً من الخضوع الذي بات يتطلب قبل كل شيء اكتساب الثقة بالنفس ؛ وضمان القدرة على « المجابهة » وعقد « أبو بكر » مؤتمراً لطرح الموقف ومناقشته ؛ وكان هناك ثمة تضارب في وجهات النظر مثلها « عبد الرحمن بن

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١/١٢٦ – ١٢٧ .

عوف » في مقولته : (يا خليفة رسول الله ؛ انها الروم وبنو الأصفر ؛ حدٌ حديد وركن شديد ، ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً ؛ ولكن نبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع اليك ؛ وإذا فعلوا ذلك مراراً وأضروا بهم وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوهم ؛ ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي «ربيعة» و «مضر» . ثم تجمعهم جميعاً اليك ؛ ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم) .

وهكذا كان من رأي « عبد الرحمن بن عوف » ارسال « الاغارات الاستطلاعية » بصورة متتابعة بهدف اكتساب المعرفة الجيدة بقوات الروم وتنظيماتهم ؛ مع اكتساب معرفة جيدة بالأرض والطبيعة السكانية « التكون الديموغرافي » واستنزاف قوة الروم قبل كل شيء واعداد الموقف لازالة حالة « الخضوع النفسي » مما يساعد على خوض « المعركة الحاسمة » التي يتم لها حشد كل القوات الممكنة . من أقاصي « اليمن » حتى أقاصي « حدود بلاد الشام مع الجزيرة » هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ فقد برهنت الغزوات الاستطلاعية المتتالية على وجود حالة من التمزق الداخلي في كيان « الامبراطورية البيزنطية » لا سيما في مجال العلاقات « العربية ــ البيزنطية » إذ على الرغم من إسراع « عرب الشام » لدعم الروم ضد قوات « المسلمين » إلا أن عقد الاتفاقات مع قادة المسلمين ؛ برهنت على توفر إمكانات « لتحييد العرب » ومنعهم من تقديم الدعم « للروم ــ البيزنطيين » إلى جانب

توفر امكانات « اكتساب » بعض من قوة « عرب الشام » للعمل مع قوات المسلمين . ومهما كان عليه الموقف ؛ فقد كان هناك تصميم عام لغزو « الروم » في الشام و « الفرس » في العراق . ولم يكن هناك اختلاف في « حتمية الصراع » مع قوى الدولتين العظميين ؛ ولو أن هناك ثمة اختلاف في أسلوب خوض هذا الصراع ؛ وقد ترك الأمر بكامله للخليفة « أبي بكر » يعالجه كيف يشاء .

في الوقت الذي كان الجهاد ضد « المرتدين » يحتل المرتبة الاولى ؛ كانت حماية الجزيرة ضد كل تدخل خارجي هدف الخليفة « أبا بكر » الذي وجه مجموعتين متتاليتين وفي تواقت واحد الأولى للتعامل مع الفرس « بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني » والثانية للتعامل مع « الروم » بقيادة « خالد بن سعيد »[1] وأوصى الخليفة قائده « خالداً» بأن ينزل « بتيماء »

---

(١) خالد بن سعيد بن أمية بن عبد شمس — أبو سعيد الأموي — من الصحابة الأوائل في الاسلام — كان من العشرة الذين اكتسبوا شرف السبق للاسلام ؛ وهو صبي صغير — وهاجر إلى الحبشة وعاد إلى المدينة بعد موقعة « بدر الكبرى » وعمل كاتباً للرسول ﷺ ؛ واشترك في غزوات الرسول ؛ وكان موضع « ثقة الرسول » فعينه على صدقات جموع « فراد — وزبيد — ومذحج — في اليمن » فأقام في صنعاء حتى وفاة الرسول ؛ حيث عاد إلى المدينة ؛ فعينه « أبو بكر » لقيادة قوة بفحل « ردءاً » للمسلمين وحماية لهم على حدود الشام ؛ ولكن «خالداً» توغل في الشام فقطع الروم خطوط =

على حدود بلاد الشام (وألا يبرحها ؛ وأن يدعو من حوله بالانضمام اليه ؛ وألا يقبل إلا ممن لم يرتد ؛ ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره) وأقام « خالد بن سعيد » في « تيماء » فاجتمع اليه جموع كثيرة ؛ وبلغ الروم عظم ذلك العسكر ؛ فضربوا على العرب الضاحية « البعوث بالشأم اليهم » فكتب « خالد » إلى الخليفة بذلك ؛ وبنزول من استنفرت الروم ومن انضم إليهم من عرب «بهراء ؛ وكلب ؛ وسليم ؛ وتنوخ ؛ ولخم ؛ وجذام ؛ وغسان ؛ وسواهم ، فكتب اليه الخليفة « أبو بكر » (أن أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك) وفي الوقت ذاته تابع « أبو بكر » حشد القوات ؛ ووجه أربعة جيوش لفتح الشام ؛ فأراد « خالد » احراز نصر يدعم من مكانته . فتقدم ؛ وأوغل ؛ وعمل الروم على امساك محاور العمليات ، ووقع « خالد » في الكمين الذي أعده الروم باحكام ؛ فهرب « خالد » مع بعض قواته حتى وصل « ذا القصة » في حين قاد « عكرمة » قوات « خالد » لايقاف « الروم » وحماية المسلمين الذين « هربوا مع خالد » وعندما علم « أبو بكر » غضب وأرسل إلى « خالد » يأمره بالبقاء في « ذي القصة » حفاظاً على الروح المعنوية للمسلمين .

= مواصلات « خالد » فهرب مع قوة من الفرسان حتى وصل « ذي المروة » فعزله أبو بكر الا أن « خالد » تطوع مقاتلاً في جيوش الشام مع أهله ؛ وقاتل تحت قيادة شرحبيل بن حسنة . واستشهد في معركة مرج الصفر «١٣ هـ — ٦٣٤ م » .

وجرده من قواته ، ووجهها بقيادة « شرحبيل بن حسنة » و « معاوية بن أبي سفيان » لدعم « جيوش الشام». ثم أذن إلى « خالد بن سعيد » بدخول المدينة .

« أفاد « الروم » من هذا النصر في العمليات ؛ وظنوا أنهم باستطاعتهم القضاء على قاعدة الإسلام في الجزيرة ؛ ولكن جيوش المسلمين في هذه الفترة كانت تسلك محاور العمليات المختلفة وهي تتوجه إلى أهدافها « في الاردن وفلسطين والشام وحمص ».



الطبيعة الجيو – استراتيجية :

لم تتبدل الطبيعة الجغرافية لبلاد الشام كثيراً بين ما كانت عليه أيام الفتح ، وبين ما هي عليه اليوم ؛ ومن المعروف أن العامل الجغرافي هو أكثر العوامل ثباتاً في مجموعة العوامل التي تؤثر على « مسرح الأعمال القتالية » وتتزايد درجة الثبات بالنسبة لبلاد الشام نظراً لعدم تعرض المنطقة لتغيرات جذرية ؛ فحتى بعض الهزات الأرضية التي حدثت لم تغير كثيراً من ظاهر القشرة الأرضية – بسبب استقرار القشرة الأرضية في هذه المنطقة ، وعلى هذا فقد كانت محاور التقدم ومحاور العمليات مماثلة لما هي عليه اليوم ؛ فكان هناك المحور الساحلي الذي تنفرج عنه الصحراء من « المدينة المنورة » إلى « تبوك » حتى الساحل عند « غزة » ثم يتجه شمالاً مع امتداد الساحل إلى « بيروت » فاللاذقية » حتى « انطاكية » حيث جبال طوروس . وهناك المحور الداخلي الذي ينفرج من الصحراء جنوباً ليمر « بالاردن » « فدمشق » ومنها إلى « بعلبك » فمدينة « حمص » وحتى « حلب » . وهناك بعد ذلك « المحور

الصحراوي الذي يفصل بين بلاد الشام وبلاد العراق . وكانت محاور التحرك الفرعية بين هذه المحاور الرئيسية تسير بصورة عرضانية عبر الثغرات الجبلية ــ تماماً على نحو ما هي عليه اليوم ؛ فهناك المحور الذي يصل بين « الاردن » و « فلسطين » مروراً « بالقدس » وهناك محور « دمشق » الساحل عن طريق « بعلبك » وهناك أيضاً محور « حمص ــ اللاذقية » و « حلب » انطاكية . وكانت جبال « طوروس » تشكل الحد الفاصل بين بلاد الروم « البيزنطيين» وبين « بلاد العرب » وكان الاتصال عبر هذه الجبال يخترق المحاور التقليدية التي أطلق عليها العرب اسم « الدروب » وكانت هذه الدروب هي « الخوانق » لكل تحرك على مستوى العمليات أو على المستوى الاستراتيجي . وكان من أبرز هذه الخوانق محور انطاكية ــ مرعش ، الضيق والوعر ومحور الجزيرة الذي تسير فيه مجاري « دجلة والفرات » وقد أطلق العرب على هذا المحور اسم « الدروب الجزرية » نسبة إلى الجزيرة الشامية الواقعة بين النهرين .

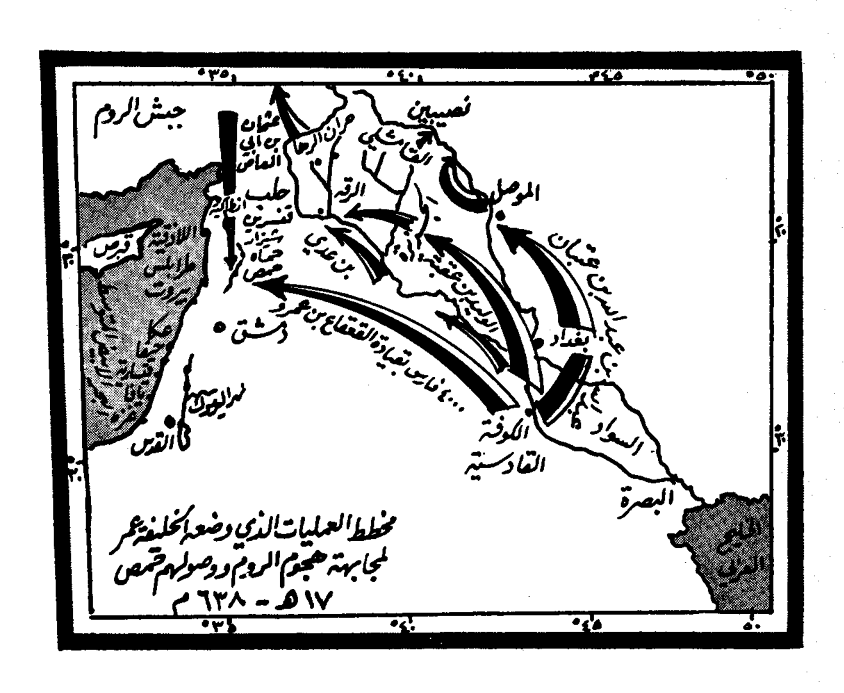
ولكن ؛ وبقدر ما كان العامل الجغرافي ثابتاً ؛ فقد كان عامل « المناخ أو البيئة » متبايناً . ومن المعروف أن منطقة بلاد الشام تزحف نحو المنطقة القارية ؛ ولهذا ؛ وبحسب الشواهد المتوافرة ؛ فقد كانت بلاد الشام أكثر برودة في فصل الشتاء ؛ وكان المناخ أكثر قسوة ؛ كما كانت القشرة الأرضية مكسوة بالنباتات في الجبال والسهول على حد سواء ؛ وكانت الغابات والسهول مرتعاً للحيوانات المفترسة . ويبرهن ذلك على صعوبة

التحرك بقوات كبيرة خارج محاور التحرك الرئيسية . ولكنه كان يضمن في الوقت ذاته الموارد الحياتية للقوات القليلة والمجموعات المقاتلة الصغرى . ولم تكن الانهار والعوائق المائية تشكل سدوداً في جميع الحالات ، ولو أن الروم أفادوا من بعض هذه العوائق المائية ونظموها جيداً لدعم مواقعهم الدفاعية ؛ على نحو ما فعلوه في معركة « فحل » أو « بيسان » .

لقد كان العامل الجيو-استراتيجي في مصلحة الروم أكثر مما هو في مصلحة العرب المسلمين ؛ ذلك أن قوات الروم كانت قد عرفت طبيعة بلاد الشام بعد اقامتها الطويلة فيها ؛ كما أنها أكثر قدرة على التكيف مع طبيعة بلاد الشام من العرب الذين ألفوا المناخ الصحراوي ؛ وعلاوة على ذلك فقد كانت استعدادات الروم جيدة للعمل في هذه الاجواء في حين كانت قوات العرب المسلمين محرومة من كل ضرورات الحياة وكان عليها - حتى تضمن لنفسها القدرة على الصمود والاستمرار - أن تنتزع من قبضة خصومها ما كانت تحتاج اليه .

موقف الروم – البيزنطيين :

كان الروم في صراع دائم مع الفرس ؛ وكانت الحروب بين الدولتين العظميين لا تكاد تنقطع ؛ وكانت الدولة البيزنطية « الروم » تعتمد في حروبها على استراتيجيتها القارية – البحرية ؛ في حين كانت استراتيجية « الفرس » قارية بالدرجة الأولى ، وكان من المحال على أية دولة احراز نصر حاسم على الدولة الاخرى بسبب توازن القوى بينهما ؛ فكان النصر يتناوب على الطرفين ؛ مرة يقف إلى جانب الفرس ؛ ومرة إلى جانب الروم ؛ ونتج عن ذلك اقامة نوع من « التنظيم العسكري » يتوافق مع طبيعة هذه الحروب ؛ فقد نظم الروم – البيزنطيين – دفاعهم في المدن ؛ وعملوا على تحصينها تحصيناً قوياً ؛ وفي كثير من الأحيان كان يتم تنظيم الدفاع « بأسوار مزدوجة تحيط بها الخنادق العميقة مع تجهيز المدن بأدوات الحرب الضرورية للحصار « مجانيق » وكان يتم شحن المدن بمواد غذائية وتموينية تكفي لحصار طويل . وكان الهدف الاول من التحصينات الدفاعية هو امتصاص قوة هجوم الخصم ؛ واستنزاف قدرته القتالية وتوفير الظروف المناسبة لتدخل القوات المتحركة .



مخطط العمليات الذي وضعه الخليفة عمر لمجابهة هجوم الروم ووصولهم حمص
١٧ هـ - ٦٣٨ م

التي تدفعها الدولة البيزنطية لاحباط العدوان . وكانت هذه القوات المتحركة تعتمد بالدرجة الاولى على قوة الصدمة « الممثلة بالفرسان » وكان باستطاعة الامبراطورية البيزنطية حشد قوات مقاتلة ضخمة ؛ لكن هذه القوات كانت بطيئة الحركة لعاملين أولهما اعتمادها على « تموينها الاداري » الذي كان يشكل « ذيلاً ثقيلاً » يشد اليه القوات ويفقدها مرونتها ؛ والثاني هو أن ضخامة القوات كانت تتطلب قيادة وتنظيماً دقيقين ؛ وكان من الصعب دائماً توفير الشروط المناسبة ؛ فكان التحرك البطيء للقوات عاملاً في اضعاف موقف القوات البيزنطية . ولكن ؛ وبقدر ما كان التحرك القاري — أو التحرك للعمليات — بطيئاً — بقدر ما كان التحرك البحري للدعم بالقوات أو تأمين الامداد سريعاً ومنظماً ؛ وكانت الهيمنة البحرية للبيزنطيين عاملاً مساعداً لاجراء كل التحركات بحرية تامة ؛ ودون خوف من أي تدخل خارجي .

لقد كانت « الليجيونات » البيزنطية هي رمز قوة الامبراطورية ؛ وكانت الفرسان الثقيلة التي تقف — كالجدار الصلب — كافية لتدمير كل قوة تصطدم بها . ولكن هذه « الليجيونات » تعرضت لبعض نقاط الضعف ، بسبب الحروب المتواصلة التي استنزفت تلك « النوعية الممتازة » وأحلت محلها « نوعية من المرتزقة » أقل كفاءة وأقل اخلاصاً مما كانت عليه الكتائب والليجبونات التي شيدت مجد الامبراطورية . وإلى

جانب ذلك ؛ فقد كانت الحدود الغربية للامبراطورية — مع أوربا — معرضة باستمرار لهجمات البرابرة ؛ ممن دمروا من قبل الامبراطورية الرومانية الغربية . فكانت الامبراطورية البيزنطية مرغمة على الاحتفاظ بعدد من « ليجيوناتها » للدفاع عن حدودها الغربية ؛ ودعم تحصيناتها الدفاعية هناك .

مهما كان عليه الموقف ؛ فقد كان باستطاعة الدولة البيزنطية حشد قوات ضخمة ؛ وتأمين وسائط كافية لخوض حروب طويلة ، وكانت « سوريا » و « مصر » تشكلان المجال الحيوي الذي يدعم القدرة البيزنطية ويزيد من قوتها القتالية ؛ كما كان هذا « المجال الحيوي » هو الذي يساعد الدولة البيزنطية على خوض الحروب بعيداً عن حدودها ؛ ولم تكن الدولة البيزنطية وهي « تعتمد على مثل هذه القوة » تخشى منافسة العرب أو خوض الصراع ضدهم ؛ إذ كانت تؤهل نفسها باستمرار للحرب ضد القوة العظمى المنافسة « الفرس » وكانت تعتمد على تمزق العرب « بين مناذرة مناصرين للفرس » و « غساسنة مناصرين للروم » لاضعاف العرب بصورة عامة ، وعدم السماح أبداً بتعاظم القوة العربية إلى درجة تزيد عن حدود دعم « القدرة البيزنطية » .

أبو عبيدة في « الشام » :

قرر « أبو بكر » توجيه أربعة جيوش لفتح « الشام » واستعمل « أبا عبيدة بن الجراح » وأمّره على « حمص » وخرج معه وهما ماشيان ؛ والناس معهما وخلفهما ؛ وأوصى كل واحد منهما صاحبه ؛ (وسلك « أبو عبيدة » طريق « التبوكية » وبلغ الروم ذلك ؛ فكتبوا إلى « هرقل » امبراطور الروم . وحشد « هرقل » قواته ؛ وعبى لهم العساكر ؛ وأراد اشغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله ؛ وأرسل إلى « عمرو بن العاص » في فلسطين أخاه لأبيه وأمه واسمه « تذارق » فخرج هذا في تسعين ألفاً ؛ وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ــ المؤخرة ــ في « ثنية جلق » بأعلى « فلسطين » وبعث « جرجة بن توذرا » نحو « يزيد بن أبي سفيان » فعسكر بازائه . وبعث « الدراقص » فاستقبل « شرحبيل ابن حسنة » وبعث أيضاً « الفيقار بن نسطوس » في ستين ألفاً نحو « أبي عبيدة بن الجراح » ولم تكن قوته تزيد على سبعة آلاف ؛ فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفاً ؛ سوى « عكرمة » في ستة آلاف ؛ ففزعوا جميعاً

بالكتب ؛ وقرروا الاجتماع في « الجولان » وأعاد الروم تجميع قواتهم التي بلغ عدد أفرادها ٢٤٠ ألفاً منهم ثمانون ألف مقيد وأربعون ألف منهم مسلسل للموت ؛ وأربعون ألفاً مربطون بالعمائم ؛ وثمانون ألفاً من الفرسان ؛ **والمسلمون سبعة وعشرون ألفاً ممن كان مقيماً إلى أن قدم عليهم « خالد » في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفاً)** [1] (لم تكن طريق « أبو عبيدة » إلى « اليرموك » خالية من العوائق ؛ وفارغة من المقاومة ؛ فقد اصطدم – أبو عبيدة – مع وصوله إلى « البلقاء » بقوات الروم وحامية المدينة ؛ ونجح في القضاء على المقاومة ؛ وطلب أهل البلقاء الصلح فعقد « أبو عبيدة » معهم اتفاقية ؛ كانت أول عقد للصلح مع المسلمين – في الشام –) [2] .

أخذت الاحداث في التفاعل بسرعة ؛ فقد مضت فترة غير قصيرة والمسلمون ينالون من الروم باستمرار « ويستنزفون قوتهم ؛ وأخذ قادة الطرفين المتحاربين يبحثون عن « الحسم» في الصراع المسلح وكتب « أبو عبيدة » إلى الخليفة « أبو بكر » يشرح له تطورات الموقف ؛ ويستشيره فيما يجب على المسلمين عمله . فوافق على تجمع القوات في « الجولان » وكان في رسالة الخليفة لأبي عبيدة : **(بث خيلك في القرى والسواد ؛ وضيق عليهم بقطع الميرة والمادة ؛ ولا تحاصرن المدائن حتى يأتيك**

---

(١) تاريخ الامم والملوك ٣/٣٩٠ و ٣٩٢ و ٣٩٤ .
(٢) الكامل في التاريخ / ابن الأثير ٢/٢٨٠ .

أمري ... فان ناهضوك ، فانهد لهم واستعن بالله عليهم ؛ فانه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثلهم أو ضعفيهم) [1]

وأصدر الخليفة « أبو بكر » أوامره « إلى خالد بن الوليد » وكان بالعراق ؛ من أجل التوجه إلى « الشام » وكتب إلى « أبي عبيدة » (قد وليت « خالداً » قتال العدو « بالشام » فلا تخالفه ؛ واسمع له وأطع ؛ وإني لم أبعثه عليك أن لا تكون خيراً منه ؛ ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ؛ أراد الله بنا وبك خيراً والسلام) وكتب « خالد بن الوليد » إلى « أبي عبيدة» بعد أن وصلته رسالة الخليفة : (أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام؛ وبالقيام على جندها والتولي لأمرها؛ ووالله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ... فأنت على حالك الذي كنت عليه ؛ لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً ؛ فأنت سيد المسلمين ؛ لا ينكر فضلك ؛ ولا يُستغنى عن رأيك) .

تحرك « خالد » من العراق ومعه نصف القوات التي كانت في العراق ؛ ووصل إلى الشام ؛ ونظم قوات المسلمين في « اليرموك » وتولى « أبو عبيدة بن الجراح » قيادة قوات « الكراديس في القلب » وكان « خالد » يرجع إلى « أبي عبيدة في كل أموره » وانصرف « أبو عبيدة » إلى جند الله ، يستثير حماستهم للحرب ؛ ويحرضهم على الجهاد ؛ وكان

---

(١) فتوح الشام - الواقدي - ٤٢/١ .

مما قاله لهم : « عباد الله ! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ؛ عباد الله ! اصبروا فان الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار . لا تتركوا مصافكم ؛ ولا تخطوا اليهم خطوة ولا تبدأوهم بالقتال ؛ وأشرعوا الرماح واستتروا بالارق ؛ والزموا الصمت الا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم حتى يتم أمركم ان شاء الله) [1] .

انتهت معركة اليرموك بانتصار المسلمين ؛ وتوفي خليفة رسول الله « أبو بكر الصديق » وتولى « عمر بن الخطاب » امارة المؤمنين ؛ وكان أول ما فعله أن عزل « خالد بن الوليد » وعين « أبو عبيدة » لقيادة جيوش الشام [2] فعمل « أبو عبيدة » على تعيين « بشير بن كعب بن أبي الحميري » بمهمة حماية قواته (كي لا يغتال بردة ؛ ولا تقطع الرؤم عليه مواده) وخرج « أبو عبيدة » حتى ينزل « بالصفر » وهو يريد اتباع ــ الفالة ــ « فلول العدو » ولا يدري أيجتمعون أو يفترقون ؛ فأتاه الخبر بأنهم (أرزوا إلى « فحل » وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل « دمشق » من « حمص » فهو لا يدري « أبدمشق »

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١٦٢/١ .

(٢) هناك ثمة اختلاف في المصادر العربية بالنسبة لموعد وصول أنباء وفاة الخليفة أبو بكر وتعيين أبو عبيدة ؛ إذ تذكر بعض المصادر أن ذلك قد حدث في اليرموك في حين تشير بعض الشواهد ــ وهي الأكثر ثباتاً بأن ذلك قد حدث في أعقاب اليرموك مباشرة .

يبدأ ؛ أم « بفحل » من بلاد « الاردن » . فكتب إلى الخليفة « عمر » يستشيره ، فأجابه الخليفة عمر : (أمـــا بعد : **١ ـ فابدؤوا « بدمشق » فانهدوا لها ، فانها حصن الشام وبيت مملكتهم . ٢ ـ واشغلوا عنكم أهل « فحل » بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل « فلسطين » وأهل « حمص » ٣ ـ فان فتحها الله قبل « دمشق » فذاك الذي نحب ؛ وان تأخر فتحها حتّى يفتح الله « دمشق » فلينزل « بدمشق » من يمسك بها . ٤ ـ ودعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على « فحل » . ٥ ـ فان فتح الله عليكم ؛ فانصرف أنت وخالد إلى « حمص » ودع « شرحبيل ـ و ـ عمراً » وأخلهما « بالاردن » و « فلسطين » ٦ ـ وأمير كل بلد وجند على الناس حتّى يخرجوا من امارته) .**

انطلق « أبو عبيدة » إلى « دمشق » بعد أن سرح عشرة قواد إلى « فحل » ونظم « أبو عبيدة » عملية الحصار ؛ فكلف « خالد بن الوليد » بحصار قطاع الباب الشرقي » و « عمرو بن العاص » لحصار « باب توما » و « شرحبيل بن حسنة » لحصار قطاع « باب الفراديس » و « يزيد بن أبي سفيان » لحصار قطاع « باب الصغير » وتولى هو حصار قطاع « باب الجابية » . وأرسل قوة من الفرسان بقيادة « ذا الكلاع الحميري» بمهمة العمل بين « دمشق » و « حمص » لمجابهة كل قوات يرسلها الروم لدعم حامية « دمشق » كما أرسل قوة أخرى من الفرسان أيضاً بقيادة « علقمة بن حكيم » للقيام بالمهمة ذاتها على محور

« فلسطين – دمشق » واستمر الحصار لفترة ٧٠ يوماً) [1] تخللها قتال ضار واشتباكات كثيرة وأعمال قصف بالمجانيق وكانت الحرب فيها سجالاً أصاب المسلمين من الخسائر بمثل ما أصاب الروم . وحاول الروم أثناء حصار « دمشق » ارسال دعم لحاميتها ؛ لكن قوة ذا الكلاع دمرت قوات الدعم ؛ ولما طال الحصار دون أن تصل الامدادات ؛ بدأت الروح المعنوية للحامية المدافعة عن « دمشق » بالتدهور . وبدأت الاتصالات مع « أبي عبيدة بن الجراح » ثم اقتحم « خالد » الباب الشرقي عنوة ؛ وأسرع قائد حامية « دمشق » لفتح « باب الجابية » وتدفقت جموع المسلمين ؛ والتقى هؤلاء الذين دخلوا صلحا مع قوات خالد التي دخلت هرباً في منطقة من دمشق – عند سوق النحاسين – وتم الاتفاق على إمضاء الصلح لكل أهل دمشق . ووافق أمير المؤمنين « عمر » على الصلح مع « أهل دمشق » [2] .

---

(١) في تهذيب ابن عساكر ١٤٦/١ استمر الحصار أربعة أشهر وفي ؛ الطبري ٤٣٨/٣ ذكر أن مدة الحصار هي سبعين يوماً ؛ والاحتمال الأرجح هو أربعة أشهر وفقاً لما جاء في الأشعار التي سجلت أحداث المعركة والتي يمكن اعتمادها كوثائق ثابتة لا سيما عندما تتوافق نصوص هذه الوثائق مع بقية الشواهد – انظر قراءات ٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٤٣٥/٣ – ٤٤٢ وابن الأثير ٢٩٣/٢ – ٢٩٤ وانظر في نهاية هذا الكتيب موضوع اتفاقية الصلح بين أهل « دمشق » و « أبو عبيدة بن الجراح » .

عندما كانت جيوش الشام تحرز النصر تلو النصر ، كانت الاحداث على جبهة العراق تتفاعل بصورة مغايرة : وما أن تم فتح « دمشق » حتى وصلت رسالة من أمير المؤمنين « عمر » إلى « أبي عبيدة بن الجراح » وفيها : (ان اصرف جند العراق الى العراق وأمرهم بالحث إلى سعد بن مالك) فعمل «أبو عبيدة» فوراً على فصل جند العراق ؛ وإعدادهم للتحرك بقيادة « هاشم ابن عتبة » وتولى « القعقاع بن عمرو التميمي » قيادة المقدمة ؛ وانطلق جند العراق إلى العراق وعلى المجنبتين « عمرو بن مالك الزهري » و « ربعي بن عامر » .

استخلف « أبو عبيدة » على « دمشق » يزيد بن أبي سفيان » ومضى إلى « فحل » حيث وضع قواته تحت تصرف « شرحبيل بن حسنة » الذي قاد معركة « فحل » وبعد الانتصار الحاسم للمسلمين في هذه المعركة ؛ مضى « أبو عبيدة » إلى « حمص » ودفع « خالد بن الوليد » على مقدمته [1] .

وقعة مرج الروم [2] :

بقي « ذا الكلاع الحميري » مع قوة الفرسان على محور

---

(١) في الكتاب القادم من هذه المجموعة « خالد بن الوليد » تظهر صورة العلاقة بين القائدين العظيمين أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ؛ على اعتبار أنهما اشتركا معاً في حروب فتح الشام — أكثرها — .

(٢) مرج الروم : هو سهل البقاع « قاموس الجغرافيا القديمة » أحمد زكي باشا .

« دمشق — حمص » وذلك لاحباط كل محاولة يقوم بها الروم للتسلل في اتجاه دمشق بهدف إثارة الاضطراب في إقليم لازال حديث العهد بالتعامل مع المسلمين . وهكذا فعندما انتهت معركة « فحل » مع نهاية السنة الرابعة عشرة للهجرة ؛ أعاد « أبو عبيدة » تنظيم قواته ؛ وترك « شرحبيل بن حسنة » في الأردن . و « عمرو بن العاص » في فلسطين ؛ ثم توجه نحو الشمال حتى نزل على « ذي الكلاع » وكان « هرقل » قد بعث البطريق « توذرا » حتى نزل « بمرج الروم » وغربها ؛ ثم ترك قسماً منها هناك وتوجه نحو دمشق ببقية القوة . وعمل « أبو عبيدة » على مجابهة هذا الموقف بأن نظم قواته على شكل مجموعتين قتاليتين : قاد هو مجموعة منها ضد قوات « مرج الروم » التي كان يقودها « شنس » في حين تولى « خالد بن الوليد » قيادة المجموعة الثانية واتجه بها لمطاردة الروم المتجهين إلى دمشق بقيادة « توذرا » وبلغ « يزيد بن أبي سفيان » خبر تحرك قوة من الروم ضد « دمشق » فخرج منها ومعه قوة من جيشه ، وبدأت المعركة بين جيش يزيد وجيش « توذرا » ودارت معركة ضارية ؛ ووصل «خالد بن الوليد» في الوقت المناسب فانقض على مؤخرة جيش « توذرا » الذي وقع بين الجيشين المسلمين ؛ وتحولت المعركة إلى عملية ابادة لم ينج منها الا قليل من الروم ؛ وغنم المسلمون مغانم كثيرة قسمها « يزيد » بين جيشه وجيش « خالد » . وعاد « يزيد » إلى « دمشق » في حين قاد « خالد » قواته على الفور للوصول

إلى « مرج الروم » حيث كانت المعركة الضارية بين قوات « شنس » وقوات « أبي عبيدة » وهنا أيضاً تكررت العملية ؛ فقد حاصرت قوات المسلمين قوات الروم ، وتحول القتال إلى « عملية ابادة » بحيث قتل من الروم مقتلة عظيمة حتى امتلأ مرج الروم بجثث القتلى . وأرسل « أبو عبيدة » قوة من الفرسان لمطاردة أولئك الذين أفلتوا من المعركة واتجهوا إلى حمص [1] .

فتح بعلبك :

تابع « أبو عبيدة » تقدمه ؛ فوصل « بعلبك » وهناك التقت قوات المسلمين بقافلة من الامدادات والمواد التموينية كانت تتجه نحو « بعلبك » بأمر من « هرقل » الروم وأسرعت مفرزة من فرسان المسلمين فاستولت على القافلة ؛ وأبادت قوة الحراسة المرافقة للقافلة . وعندما وصلت قوات المسلمين إلى « بعلبك » جابهتها قوة من سبعة آلاف مقاتل بقيادة حاكم « بعلبك » البطريق « هربيس » ودارت معركة قصيرة وحاسمة انتصر فيها المسلمون ؛ وأصيب « هربيس » بجراح ؛ واضطر أن ينسحب بجنده إلى القلعة للافادة من أسوارها المنيعة ؛ ولدعم المدينة التي أصبحت مكتظة بحشود اللاجئين الذين وفدوا اليها من القرى المحيطة ببعلبك . ونظم « أبو عبيدة » الحصار حول المدينة ، وطلب من أهل « بعلبك » ايقاف الحرب والامتناع

---

(١) تاريخ الامم والملوك ٥٩٨/٣ ــ ٥٩٩ وابن الأثير ٣٤٠ .

عن المقاومة ؛ وعرض عليهم الصلح : وحدث انقسام في الرأي بين أهل « بعلبك » بعضهم يطلب الحرب وبعضهم ينشد السلم ؛ وتغلب دعاة الحرب ؛ ووقف « أبو عبيدة » يحرض جيشه على الجهاد ويقول لهم : (اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم ؛ فان بقيت كانت وبالاً على من صالحتم ؛ ولا تقدرون على سفر ولا على غيره) . وحصلت قوات المسلمين على بعض الأسرى ؛ وأحضروهم إلى « أبي عبيدة » ولدى استجوابهم تبين أن الروح المعنوية في « بعلبك » متدهورة ؛ وأن هناك حشد كبير يتطلب كميات كبيرة من المواد الغذائية ؛ وهي غير متوافرة بما يكفي حاجة المدينة .

ودارت معركة اليوم الأول دون التحام ؛ فكان المسلمون يرمون بالسهام والمجانيق ، ويجيبهم المقاتلون من فوق الأسوار بأسلوب مماثل . وفي اليوم الثاني ؛ كان البرد شديداً ؛ فطلب « أبو عبيدة » من جنده أخذ وجبة طعام ساخنة ؛ وقال لهم : « على كل رجل من المسلمين ألا يبرز لحرب هؤلاء القوم حتى ينفذ رحله ؛ ويصلح له طعاماً حاراً يأكله ليكون بذلك شديداً على لقاء العدو » . وكان ذلك سبباً في تأخر المسلمين عن الهجوم ؛ فظن قائد قوات بعلبك « هربيس » أن هناك سبباً أعاق المسلمين عن الهجوم ؛ وقرر مباغتتهم بهجوم مفاجيء ؛ وانطلق بجيشه ؛ فجابهته قوة الحماية وفيها « عمرو ابن معد يكرب و عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ وربيعة بن عامر ؛ ومالك بن الاشتر ، وضرار بن الأزور ؛ وذو الكلاع

الحميري » . وقاتلت هذه القوة بعناد وتصميم ؛ وأسرع المسلمون إلى أسلحتهم ؛ وانضموا إلى قوة الحماية ، وتعاظمت قوة المسلمين مما أرغم قوة الروم على الانسحاب من جديد حتى القلعة ، بحثاً عن الحماية وراء جدرانها القوية .

قرر « أبو عبيدة » نتيجة لهذه المعركة الانسحاب بعيداً عن القلعة حتى مسافة كافية وجمع قادته وقال لهم : (**اعلموا أن من الرأي أن نتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالاً لخيلكم ؛ ومنعة لحريمكم** » ثم نظم « أبو عبيدة » مجموعات قتالية على النحو التالي :

١ — مجموعة فرسان من خمسمائة فارس بقيادة « سعيد بن زيد » ومعها قوة من المشاة تتكون من ثلاثمائة مقاتل بقيادة « عمرو بن نفيل » بمهمة التوجه إلى الوادي ؛ وإحكام الحصار على المنافذ الخلفية للمدينة .

٢ — مجموعة فرسان من خمسمائة مقاتل ومعها مائة مقاتل من المشاة بقيادة « ضرار بن الأزور » ومهمته التحرك حتى « باب الشام » لاحكام الحصار ؛ وقتال من يخرج اليه) .

كان اليوم الثالث من القتال يوماً حاسماً ؛ زج فيه « هربيس » أكبر قسم من قواته . وانطلق بهم لمجابهة قوات « أبي عبيدة » ودارت رحى معركة طاحنة لم يتمكن خلالها أحد من إحراز النصر . وكان « سهل بن صباح العبسي » جريحاً ؛ فتسلق منذ بداية المعركة المرتفع المشرف على السهل ؛

وأخذ يتابع القتال ؛ وعندما شاهد قوة هجوم الروم وصمود المسلمين ؛ وعدم تمكنهم من انتزاع النصر ؛ أخذ في جمع ما وجده من أخشاب وأعشاب وأحرقها ، وعندما رآها « ضرار ابن الأزور » و« سعيد بن زيد » اعتقدا أن « أبا عبيدة » يطلب اليهما الالتحاق به ؛ فنظما قواتهما ؛ وانطلقا بسرعة إلى ميدان المعركة ؛ ووصلا إلى مؤخرة قوات جيش « هربيس » ، واعتقد الروم أن هناك قوات دعم جديدة قد وصلت للعرب المسلمين ؛ فانسحبوا من المعركة ؛ وانتظموا على شكل حلقة دفاع دائري ؛ وعندما أدركوا أنه أصبح من العسير عليهم الرجوع إلى القلعة ؛ توجهوا شمالاً واعتصموا باحدى القرى الحصينة ؛ فضرب « سعيد بن زيد نطاقاً حولهم من قوة المشاة . وعاد إلى « أبي عبيدة بن الجراح » . واستدعى أبو عبيدة قائديه « ضرار وسعيد » واستوضح منهما سبب مخالفتهما لتعليماته ؛ وتركهما المواقع المحددة لهما ؛ وأجاب ضرار : « وقفت حيث أمرتني ؛ ورأيت دخاناً فأسرعت » . واستعلم « أبو عبيدة » فقيل له أن « سهل العبسي » هو الذي أحرق النار ؛ فاستدعاه وسأله عن السبب الذي دفعه إلى اشعال النيران ؛ فذكر له ما حدث معه ؛ فقال له « أبو عبيدة » « لقد وفقك الله تعالى ؛ ولكن اياك بعدها أن تحدث حديثاً من غير اذن اميرك » . وحاولت قوة الروم المحاصرة ؛ بعد ذلك ؛ شق طريقها ؛ فجابهتها مجموعة الحصار ؛ وحدثت معركة ضارية في ظروف غير متكافئة ؛ وأسرع

مراسل فأعلم « أبا عبيدة » بالموقف ؛ فانطلق « سعيد » و « ضرار » ومعهما قوة من الفرسان ؛ وأحاطوا بجيش « هربيس » وانسحب هذا بقوته إلى القرية وسقط من قوة المسلمين ٧٠ رجلاً . وعندما انتهت المعركة النهارية لليوم الثالث وجه « أبو عبيدة » أمره إلى «سعيد بن زيد» : « **الحذر ...الحذر...واجتهد الا يفوتك من الروم أحد ولا تفسح لهم قدماً واحداً فيخرج منهم أحد ...** ». وشدد « سعيد » قبضته على القوة المحاصرة في القرية ؛ ونظم الشؤون الادارية بحيث تنطلق كل مجموعة من مائة مقاتل لجلب الأخشاب واشعال النيران وتأمين متطلبات المقاتلين وجعل ذلك مناوبة فيما بينهم. وحاول « هربيس » الاتصال بحاكم « عين الجوز » « وجوسيه » وعندما يئس من ذلك تقدم في اليوم التالي وطلب الصلح من « أبي عبيدة » . ونصت اتفاقية الصلح على الا يحمل أهل المدينة سلاحاً ضد المسلمين ، والا يتصلون بملك أو أحد ؛ وعليهم اعلام المسلمين عن كل أخبار تتعلق بعدوهم ؛ واشترط « هربيس » أن يبقى المسلمون خارج قلعة « بعلبك » والا يدخلوا اليها ؛ وأن تحمل اليهم الجزية ؛ ووافق « أبو عبيدة » ولكن حدث خلاف بعد ذلك بين « هربيس » وأعوانه من جهة وبين مواطني « بعلبك » من جهة أخرى ، وعمل « أهل بعلبك » على قتل « هربيس » واتفقوا على دعوة العرب المسلمين للاقامة بينهم ؛ ووافق « أبو عبيدة » على دخول المسلمين إلى « بعلبك » والإقامة بين أهلها . وعندما سقطت « بعلبك » تقدم حاكم « جوسيه » من « أبي عبيدة » وعقد الصلح معه .

فتح حمص :

استخلف « أبو عبيدة » على بعلبك « رافع بن عبد الله » ونظم جيشه للمسير ؛ وتوجه إلى « حمص » بعد أن دفع مقدمة من الفرسان تضم أربعة آلاف مقاتل بقيادة « خالد بن الوليد » وعند وصول « خالد » إلى « حمص » عقد حاكم « حمص » معه هدنة لمدة « سنة » بهدف كسب الوقت ؛ ومضى « خالد » إلى ريف « حمص » في حين كان « أبو عبيدة » يتحرك بقواته نحو المدينة « حمص » . وعندما وصل إلى « الزراعة » – قريباً من المدينة – توقف فيها ؛ ودفع « ميسرة بن مسروق العبسي » ومعه خمسة آلاف فارس ؛ وعندما عرف أن « ميسرة » قد وصل إلى « حمص » وجه مجموعة أخرى بقيادة « ضرار بن الأزور » تضم خمسة آلاف فارس أيضاً . ثم وجه بعد ذلك « عمرو بن معد يكرب الزبيدي » ولحق به ببقية الجيش .

كان « هرقل » قد عمل بعد موقعة « مرج الروم » على دعم « حاكم حمص » ، وقال له : (إنه بلغني أن طعام – المسلمين – هو لحوم الإبل ؛ وشرابهم ألبانها ؛ وهذا الشتاء فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد ؛ فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد ؛ هـــذا جل طعامه وشرابه ... وعندما نزل المسلمون « حمص » أخذ أهلها يغاورنهم ويراوحونهم في كل يوم بارد ؛ ولقي المسلمون بها برداً شديداً والروم حصاراً

طويلاً ؛ فأما المسلمون فصبروا ورابطوا ؛ وأفرغ الله عليهم الصبر ؛ وأعقبهم النصر حتى اضطرب الشتاء ؛ وإنما تمسك القوم بالمدينة رجاء أن يهلك الشتاء — قوات المسلمين — وكان أهل « حمص » يتواصون فيما بينهم ويقولون : تمسكوا فإنهم حفاة ؛ فاذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون ؛ فكانت الروم تتراجع من حربها — وقد سقطت أقدام بعضهم في خفافهم ؛ وإن المسلمين في النعال ؛ ما أصيب أصبع أحد منهم ؛ حتى إذا انخنس الشتاء ؛ قام فيهم شيخ لهم يدعوهم إلى مصالحة المسلمين . قالوا : كيف والملك في سلطانه وعزه ؛ ليس بيننا وبينهم شيء ! فتركهم ؛ وقام فيهم آخر فقال : ذهب الشتاء ، وانقطع الرجاء فما تنتظرون ؟ فقالو : البرسام ؛ فإنما يسكن في الشتاء ويظهر في الصيف ؛ فقال : إن هؤلاء قوم يعانون ولأن تأتوهم بعهد وميثاق خير من أن تؤخذوا عنوة ؛ أجيبوني محمودين قبل أن تجيبوني مذمومين ! فقالوا : شيخ خرف ؛ ولا علم له بالحرب) [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٩٩ — ٦٠١ ، وفيه حول فتح « حمص » : (أثاب الله المسلمين على صبرهم أيام « حمص » أن زُلزل بأهل « حمص » ؛ وذلك أن المسلمين ناهدوهم ؛ فكبروا تكبيرة زلزلت معها الروم في المدينة ؛ وتصدعت الحيطان ؛ ففزعوا إلى رؤسائهم وإلى ذوي رأيهم ممن كان يدعوهم إلى المسالمة ؛ فلم يجيبوهم وأذلوهم بذلك ؛ ثم كبروا الثانية ؛ فتهافتت منها دور كثيرة وحيطان ؛ وفزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم ؛ فقالوا : ألا ترون إلى عذاب الله !=

ما أن نزل « أبو عبيدة » على مدينة حمص ؛ حتّى اتصل بحاكمها ؛ وحاول اقناعه بالجنوح إلى السلم والالتزام بالصلح الذي اتفق عليه مع «خالد» لكن «حاكم حمص» . أظهر « نكثه » وصمم على القتال ؛ معتمداً على وعود « هرقل » بالدعم ؛ فعمل « أبو عبيدة » على تنظيم الحصار ؛ وقسم قواته إلى أربعة مجموعات متتالية :

١ ــ مجموعة بقيادة « المسيب بن نجية الفزاري » للتمركز عند « باب الجبل » .

= فأجابوهم : لا يطلب الصلح غيركم ؛ فأشرفوا فنادوا : «الصلح ــ الصلح » ! ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم ؛ فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم ؛ وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم ؛ لا ينزلونه عليهم ؛ فتركوه لهم ؛ فصالح بعضهم على صلح « دمشق » على دينار وطعام ؛ على كل جريب أيسروا أو أعسروا ؛ وصالح بعضهم على قدر طاقته ؛ إن زاد ماله زيد عليه ؛ وإن نقص نُقِص ، وكذلك كان صلح « دمشق » و « الأردن » : بعضهم على شيء إن أيسروا وإن أعسروا ؛ وبعضهم على قدر طاقته ؛ ووَلُوا معاملة ما جلا ملوكهم عنه) . ومن المحتمل تفسير توافق حدوث الزلزال مع صيحة المسلمين بالتكبير ــ بما هو معروف بحادثة « الطنين » الفيزيائية ؟ كما أنه من المحتمل حدوث توافق بين التكبير وبين الزلزال الطبيعي . ولكن يبقى صمود المسلمين وشدة بأسهم هو العامل الحاسم في فتح « حمص » .

٢ ـ مجموعة بقيادة « المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي الوقاص » للتمركز عند « باب الرستن » .

٣ ـ مجموعة بقيادته ؛ ونزل على « باب الشام » .

٤ ـ مجموعة عند « باب الصغير » بقيادة « خالد بن الوليد » .

وكان « خالد بن الوليد » قد أنهى جولته في الريف المحيط بمدينة « حمص » وتوغل في تقدمه حتى « شيزر »[1] ثم وجه قوة من خمسمائة مقاتل للاغارة على قنسرين ؛ وتابع « خالد » تحركه حتى « كفرطاب » و « الردة » و « دير سمعان » . ورجع من جولته بعد أن غنم كميات كبيرة من المواشي والاطعمة والغنائم بالاضافة إلى أعداد كبيرة من الأسرى ؛ وأحسن « أبو عبيدة » معاملة الأسرى ؛ ورد اليهم أموالهم ونساءهم بعد أن اتفق معهم على دعم قوات العرب المسلمين ومساندتها ، وتقديم المعلومات لها عن نشاط العدو .

عندما بلغ أهل « قنسرين » ما فعله « أبو عبيدة » أرسلوا وفداً منهم إلى أبي عبيدة وعقدوا معه صلحاً لمدة سنة أيضاً .

استمر حاكم « حمص » في عناده ؛ معتمداً على ما أعده لحرب المسلمين من تحصين للمدينة ؛ ومن استعداد للقتال ؛ مع حفظ كميات كبيرة من الأغذية للحصار ؛ وأخذ ينتظر

---

(١) شيزر : قلعة قرب « المعرة » بينها وبين « حماة » اليوم .

وصول قوات الدعم ؛ لكن جيش المسلمين صمد لظروف القتال الصعبة ؛ واحتمل قسوة الطبيعة وثلجها وعواصفها في موسم الشتاء . وعندما علم أمير المؤمنين عمر بحصار « حمص » وامتناع أهلها ؛ واحتمال قيام العرب المتنصرة من « غسان » و « لخم » بدعمهم ؛ أصدر أوامره إلى « سعد بن أبي وقاص » بتوجيه قوة إلى « هيث » و « قرقيساء » لفتحهما . ولما اشتد أمد الحصار ؛ ولم تصل قوات الدعم المنتظرة ؛ أخذت إرادة القتال تضعف لدى الجند في « حمص » وأخيراً وضع « أبو عبيدة » مخططه للهجوم الكبير ؛ فتظاهر بالانسحاب تاركاً المواشي والغنائم في المؤخرة ؛ وعندما ابتعد عن المدينة ؛ طمعت حامية « حمص » في ضرب مؤخرة المسلمين والاستيلاء على الغنائم ، وأسرع « جيش حمص » لمطاردة جيش المسلمين . وأسرع الفرسان المسلمون لتطويق أعدائهم . ومنعهم من العودة إلى قاعدتهم في المدينة ، وبعد معركة حاسمة انهارت المقاومة ؛ وتمزق الروم ، وطاردهم فرسان المسلمين ؛ وتابع « أبو عبيدة » تقدمه حتى « المدينة » وعرف « أهل حمص » أنه لم يبق لهم أمل في المقاومة ؛ فخرج منهم من يطلبون الصلح ، ودخل أبو عبيدة « المدينة » وأقام فيها ؛ وأعاد تنظيم قواته ؛ ثم استخلف في « حمص » عبادة بن الصامت لحمايتها مع قوة كافية وتوجه بجيشه نحو الشمال لمتابعة الفتوح ؛ وذلك بعد أن أنزل في « حمص » بعض قبائل العرب المسلمين .

فتح قنسرين :

ما ان فرغ « أبو عبيدة » من تنظيم أمور « حمص » حتى دفع قوة من الفرسان بقيادة « خالد بن الوليد » لفتح قنسرين ؛ فلما نزل بالحاضر زحف اليهم الروم ؛ وعليهم « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد « هرقل » فالتقوا بالحاضر ؛ فقتل « ميناس » ومن معه مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها — ومزقت قوات جبلة بن الأيهم (أنظر ملاحق الكتاب — ٣) . وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب ؛ وأنهم حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم. وسار خالد حتى نزل على « قنسرين » فتحصنوا منه ؛ فقال : (انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم ؛ أو لأنزلكم إلينا) . فنظروا في أمرهم ؛ ورأوا ما لقي أهل « حمص » فصالحوهم على صلح « حمص » فأبى « خالد » الا على خراب المدينة ؛ فأخربها . فعند ذلك دخل « هرقل » القسطنطينية (انظر ملاحق الكتاب — ٣) وخرج « أبو عبيدة» متوجهاً نحو الشمال ؛ فصالحه «أهل حماه» نحو « شيزر» فخرج أهلها وطلبوا الصلح على مثل ما صالح ومضى أهل «حماة» ثم سار « أبو عبيدة » إلى « معرة حمص » [1] فأذعن أهلها بالصلح على ما صالح عليه أهل« حمص » [2] .

---

(١) هي « معرة النعمان » ونسبت بعد إلى « النعمان بن بشير الأنصاري » .

(٢) الكامل في التاريخ ٣٤٣/٢ — ٣٤٤ والطبري ٦٠١/٣ — ٦٠٢ .

فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم :

لما فرغ « أبو عبيدة » من « قنسرين » سار إلى « حلب » فبلغه أن أهل « قنسرين » نقضوا أو غدروا فوجه اليهم « السمط الكندي » فحصرهم وفتحها . وأصاب فيها بقراً وغنماً ؛ فقسم بعضه في « جيشه » وجعل بقيته في المغنم . ووصل « أبو عبيدة » إلى « حاضر حلب » [1] فصالح أهلها على الجزية ؛ وأتى « حلب » وعلى مقدمته « عياض بن غنم الفهري » فتحصن أهلها ؛ وحصرهم المسلمون ؛ فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم ، وقيل : أن « أبا عبيدة » لم يصادف « بحلب » أحدا لأن أهلها انتقلوا إلى « انطاكية » وراسلوا في الصلح ؛ فلما تم ذلك ؛ رجعوا اليها ؛ وسار « أبو عبيدة » من حلب إلى « انطاكية » وقد تحصن بها كثير من الخلق من « قنسرين » وغيرها ؛ فلما فارقها لقيه جمع العدو فهزمهم فألجأهم إلى المدينة ؛ وحاصرها من جميع نواحيها ؛ ثم انهم صالحوه على « الجلاء » أو الجزية ، فجلا بعض وأقام بعض ؛ فأمنهم ثم نقضوا ؛ فوجه اليهم « أبو عبيدة » قوة مقاتلة بقيادة « عياض بن

---

(١) « حاضر حلب » قريباً من « حلب » وكان يضم أصنافاً من العرب من « تنوخ » وغيرهم فصالح « أبو عبيدة » أهلها على الجزية بعد فتح « قنسرين » ثم أسلموا بعد ذلك . فتوح البلدان ــ البلاذري ــ ١ ــ ه . والكامل في التاريخ ٢/٣٤٤ .

غنم »[1] و « حبيب بن مسلمة » ففتحاها على الصلح الأول « وكانت انطاكية » عظيمة الذكر عند المسلمين ؛ فلما فتحت كتب أمير المؤمنين « عمر » إلى « أبي عبيدة » (أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين ؛ واجعلهم بها مرابطة ؛ ولا تحبس عنهم العطاء) وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً من الروم بين « معرة مصرين » و « حلب » فسار اليهم ؛ فلقيهم فهزمهم ؛ وقتل عدة بطارقة وسبي وغنم ، وفتح « معرة مصرين » على مثل صلح « حلب » وجالت خيوله فبلغت « بوقا » وفتحت

---

(١) عياض بن غنم الفهري . قائد فتح الجزيرة (٤٠ - ق . هـ - ١٩ هـ = ٥٨٣ - ٦٤٠ م) أسلم قبل الحديبية ؛ واشترك في الجهاد وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وانتقل إلى العراق حيث شارك خالد بن الوليد في فتحها سنة ١٣ هـ ؛ وعندما تحرك « خالد » إلى الشام ، كان « عياض » معه . وقاد « كردوساً » من كراديس الميسرة في معركة اليرموك . وكان عياض على « الخيل » عند فتح « دمشق » . ثم سار مع « أبي عبيدة » في فتوحاته حتى وصل « حلب » ثم رجع إلى العراق فاشترك في معركتي « المدائن » و « جلولاء » وفي عام ١٧ هـ . قاد عمليات فتح الجزيرة ؛ وقام بغزو « ما وراء الدروب » . وعندما توجه « أبو عبيدة » إلى الجنوب استخلف « عياضاً » على حرب « أهل حمص » . ولما توفي « أبو عبيدة » أقر أمير المؤمنين « عمر » القائد « عياض بن غنم » على حرب « حمص » وولايتها ؛ وتوفي عن عمر يناهز الستين ؛ ودفن في مدينة « حمص » وهو خال « أبو عبيدة » وابن عمه .

ابو عبيدة بن الجراح - وفتح الشام



قرى « الجومة » و « سرمين » و « بيرين » وغلبوا على جميع أرض « قنسرين » و « انطاكية » .

فتوح الساحل :

توجه « أبو عبيدة » إلى « اللاذقية » فتصدت حامية المدينة لقوات المسلمين ؛ وجابهتها بمقاومة ضارية ؛ ولكن قوات المسلمين استطاعت تحقيق انتصار على قوات الروم ؛ واضطرتها للانسحاب ؛ وأحكم « أبو عبيدة » حصار المدينة ؛ وخشي « أبو عبيدة » أن يطول أمد الحصار ؛ لا سيما وان باستطاعة الحامية استقبال الدعم عن طريق البحر الذي لم يكن للمسلمين سيطرة عليه . وعلى هذا وضع « أبو عبيدة » مخططاً للخداع في العمليات ، فأمر بحفر حفر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس مع فرسه ؛ وأمكن تمويه (اخفاء) أعمال الحفر بحيث لم تشعر بها الحامية المدافعة عن اللاذقية . وعندما انتهت « الاعمال الهندسية » قام « أبو عبيدة » بتنظيم تظاهرة خداعية ؛ هدفها اقناع مراقبي العدو بانسحاب قوات المسلمين . وعندما هبط الليل عادت قوة الفرسان واحتلت الحفر التي سبق اعدادها بالقرب من أسوار المدينة . وأصبح أهل اللاذقية ؛ وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم . وكان للمدينة باب عظيم ؛ يفتحه جمع من الناس ؛ فعمل أهل اللاذقية على فتح الباب ؛ وأخرجوا مواشيهم ودوابهم للرعي ؛ وانتشروا بظاهر البلد ؛ فلم يشعروا الا والمسلمون يصيحون بهم ؛ ودخلوا معهم

المدينة ؛ وملكت عنوة ؛ وهرب قوم من النصارى . ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم ؛ فقوطعوا على خراج يؤدونه ؛ قلوا أو كثروا ؛ وتركت لهم كنيستهم ، وبنى المسلمون بها مسجداً جامعاً ؛ بناه « عبادة بن الصامت » ثم وسع فيه بعد ذلك [1] . وتوقف « أبو عبيدة » في « اللاذقية » ريثما ينظم أمورها ؛ ويضع دعائم المجتمع الجديد .

لما فتح المسلمون « اللاذقية » جلا أهل « جبلة » من الروم عنها [2] وفتح المسلمون مع « عبادة بن الصامت » [3] مدينة

---

(١) الكامل في التاريخ ٣٤٢/٢ والطبري ٢٨٨/٤ .

(٢) جبلة : كانت مدينة حصينة ، وكانت تتصل بالبحر ؛ فكان الروم يغيرون عليها بعد الفتح ؛ وعندما تولى « معاوية بن أبي سفيان » إمارة المؤمنين ؛ بنى حصناً خارج الحصن الرومي وشحنه بالرجال .

(٣) عبادة بن الصامت « الأنصاري الخزرجي (٣٨ ق . هـ — ٣٤ هـ = ٥٨٦ — ٦٥٤ م) أسلم « عبادة » وشهد بيعة العقبة الثانية مع اثني عشر من الأنصار الذين عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم (أن يمنعوا رسول الله مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزرهم ؛ وأن يرحل اليهم وأصحابه) وعندما هاجر المسلمون إلى المدينة ؛ آخى الرسول بين « عبادة » وبين « أبي مرشد الغنوي » وشهد « بدراً » وأحد والخندق ؛ واشترك مع الرسول في مواقعه ومعاركه كلها . واستعمله الرسول على بعض الصدقات . وكان يهود « بنو قَيْنُقَاع » حلفاء « عبادة » فلما حاربت « بنو قينقاع » الرسول صلى الله عليه وسلم مشى « عبادة » إلى رسول الله فخلعهم وتبرأ من حلفهم ، وقال :=

- (يا رسول الله ! أتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم) فنزل فيه قوله تعالى : (يَا أَيها الّذينَ آمَنُوا لا تَتَخِذُوا اليَهُودَ والنَّصارَى أوْلياءَ ؛ بَعْضُهم أَولِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ؛ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمينْ) (سورة المائدة–٥١)وكتب« يزيد بن أبي سفيان » إلى « عمر بن الخطاب » : (قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم) فأرسل « عمر » « معاذ بن جبل » و « عبادة » و « أبا الدرداء » فأقام « عبادة » « بحمص » فاستخلفه عليها « أبو عبيدة بن الجراح » عندما سار لفتح « اللاذقية » ثم صرفه لفتح « انطرطوس » ففتحها . وشهد فتح « مصر » وكان أحد القادة الاربعة الذين قادوا قوات الدعم عندما احتاج « عمرو بن العاص » لهذا الدعم ؛ واشترك في المفاوضات مع « المقوقس » ثم اشترك في فتح مصر تحت قيادة « عمرو بن العاص » وتولى فتح « الاسكندرية » وعاد إلى الشام ، فشهد مع « معاوية بن أبي سفيان » فتح « قبرس » . ثم انه اختلف مع « معاوية » في شيء أنكره عليه « عبادة » في الصرف ، فأغلظ له « معاوية » في القول . فقال له عبادة : (لا أساكنك بأرض واحدة أبداً) ورحل إلى المدينة ؛ فقال له عمر : (ما أقدمك ؟) فأخبره ، فقال عمر : (ارجع إلى مكانك ؛ فقبح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك) وكتب إلى معاوية : (لا إمرة لك على عبادة) . وضمه « أبو عبيدة » اليه . وكان أول من ولي قضاء « فلسطين » ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ١٨١ حديثاً ؛ وكان أحد أصحاب الفتيا في الصحابة ؛ وقد بقي في « الشام » حتى توفي « بالرملة » وقيل « ببيت المقدس » .

« أنطرطوس » [1] وكذلك « بانياس » كما فتحت « سلمية » [2] أيضاً .

هجوم الروم حتى حمص وإحباطه [3] :

بدأت السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨ م) والمسلمون في الشام قد حرروا الديار من الروم ؛ وجاء أمير المؤمنين « عمر »

---

(١) انطرطوس : بلد من سواحل الشام – طرطوس حالياً – كانت قاعدة للروم ، جلا أهلها عنها ، فأعاد « معاوية » بناءها و « شحنها بالمقاتلة » ومصّرها وأقطع بها القطائع للمقاتلة ؛ وكذلك فعل « ببانياس » .

(٢) سلمية : (قيل انها سميت « سلمية » لأنه كان بقربها مدينة تدعى « المؤتفكة » انقلبت بأهلها ؛ ولم يسلم منهم غير مائة نفس ؛ فبنوا لأنفسهم مائة منزل ؛ وسميت سلم مائة ؛ ثم حرف الناس فقالوا : سلمية . وهذا يتمشى لقائله لو كان أهلها عرباً ؛ ولسانهم عربياً . وأما اذا كان لسانهم أعجمياً فلا يسوغ هذا القول ؛ ثم ان « صالح ابن علي بن عبد الله بن عباس» اتخذها داراً وبنى ولده فيها ؛ ومصروها ؛ ونزلها من نزلها من ولدهم ؛ فهي وأرضوها لهم) الكامل في التاريخ ٣٤٣/٢ .

(٣) الكامل في التاريخ – والطبري – أحداث سنة ١٧ هـ .

لفتح « بيت المقدس » بعد أن اجتمعت حولها جيوش المسلمين ؛ والتقى أمير المؤمنين « بأبي عبيدة بن الجراح » الذي أطلعه على الموقف ؛ وعاد « أبو عبيدة » إلى قاعدة عملياته في « حمص » حيث وجد أن « الروم » قد حشدوا قواتهم وهم يريدون مباغتة المسلمين بهجوم كبير في محاولة لانتزاع الشام من قبضتهم ؛ (وكان الروم ؛ قد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة ؛ يريدون « أبا عبيدة » والمسلمين بحمص ؛ فضم « أبو عبيدة » اليه مسالحه ؛ وعسكروا بفناء مدينة « حمص » وأقبل « خالد » من « قنسرين » حتى انضم اليهم فيمن انضم من أمراء المسالح ؛ فاستشارهم « أبو عبيدة » في المناجزة — والبدء بالحرب فوراً — أو التحصن حتى مجيء الغياث — الدعم — فكان « خالد » يأمره أن يناجزهم ؛ وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن ؛ ويكتب إلى «عمر». فأطاعهم « أبو عبيدة » وعصى « خالداً ». وكتب إلى « عمر » يخبره بخروجهم عليه ؛ وشغلهم أجناد أهل الشام عنه ؛ (وقد كان « عمر » اتخذ في كل مصر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عدة لكون إن كان ؛ فكان « بالكوفة » من ذلك أربعة آلاف فرس) فلما وقع الخبر « لعمر » كتب إلى « سعد بن مالك — بن أبي وقاص » (١ — أن اندب الناس مع « القعقاع بن عمرو » وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى « حمص » . فان أبا عبيدة

قد أحيط به ، وتقدم إليه في الجد والحث . ٢ ـ سرح « سهيل ابن عدي » إلى « الجزيرة » في الجند ؛ وليأت الرقة فان أهل « الجزيرة » هم الذين استثاروا الروم على أهل « حمص » وإن أهل « قرقيساء » لهم سلف . ٣ ـ سرح « عبد الله بن عتبان » إلى « نصيبين » ثم لينغضا « حران » و « الرهاء » ٤ ـ سرح « الوليد بن عقبة » على عرب الجزيرة من « ربيعة » و « تنوخ » . ٥ ـ سرح « عياضاً ـ بن غنم » فان كان قتال ؛ فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى « عياض بن غنم ») ومضى « القعقاع » في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو « حمص » وخرج « عياض بن غنم » وامراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض ، وتوجه كل أمير إلى « الكورة » التي أمر عليها ؛ فأتى الرقة ، وخرج « عمر » من المدينة مغيثاً « لأبي عبيدة » يريد « حمص » حتى نزل « الجابية » ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل « حمص » واستثاروهم، وهم معهم مقيمون عن حديث من « بالجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت من الكوفة ، ولم يدروا : ألجزيرة يريدون أم « حمص » ؟! ... فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم ، وخلوا « الروم » (ورأى « أبو عبيدة » أمراً لما انفضوا غير الأول ؛ فاستشار « خالداً » في الخروج ، فأمره « بالخروج » ففتح الله عليهم . وقدم « القعقاع

ابن عمرو » في أهل « الكوفة » في ثلاث من يوم الوقعة ؛ فكتبوا إلى « عمر » بالفتح ، وبقدوم المدد عليهم في ثلاث أيام – من انتهاء الحرب – وبالحكم في ذلك ، من حيث توزيع الغنائم – فكتب اليهم : أن أشركوهم وقال : (جزى الله أهل الكوفة خيراً ! يكفون حوزتهم ؛ ويمدون أهل الأمصار ... انهم قد نفروا اليكم ؛ وتفرق لهم عدوكم) وقد كانت هذه العملية سبباً في اخضاع بقية الجيوب التي بقيت مستمرة في الكيد للمسلمين والنكاية بهم ؛ والعمل بعد ذلك على قطع كل اتصال للروم بأنصارهم ؛ فتم التصميم على تصفية جميع المقاومات في الجزيرة « وفتحها » مع العمل على نقل الهجوم إلى بلاد الروم ؛ وتنظيم الصوائف والشواتي لغزو ما وراء الدروب .

فتح الجزيرة :

ما ان انتهت « معركة حمص » حتى مضى « القعقاع بن عمرو التميمي » في طريقه إلى قاعدته في « الكوفة » وخرج على أثره « عياض بن غنم » في اتجاه الجزيرة وهو يعمل كمقدمة « لأبي عبيدة » حتى أتى « منبج » فصالحه أهلها ؛ وسير

« عياضاً » إلى ناحية « دلوك » [1] « ورعبان » [2] فصالحه أهلها على مثل صلح « منبج » واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم ؛ وولي « أبو عبيدة » كل كورة — ناحية — فتحها عاملاً ؛ وضم اليه جماعة — من المقاتلين ، وشحن النواحي المخوفة ؛ وكانت « حلب » قد التاثت — وتمردت — فتقدم اليها « أبو عبيدة » ولم يزل بها حتّى خضعت ؛ وجالت خيوله حتّى بلغت « بوقا » [3] وكان « سلمان بن ربيعة الباهلي » في جيش أبي عبيدة ؛ فنزل في حُصن « بقورس » فنسب اليه ؛ فهو يعرف بحصن « سليمان » . وسار « أبو عبيدة » إلى « بالس » [4] وبعث جيشاً مع « حبيب بن مسلمة » إلى « قاصرين » فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء ، فجلا أكثرهم إلى بلد الروم . وفي هذه الفترة ذاتها ؛ كانت بقية قوات المسلمين تتابع فتح الجزيرة ؛ فقد انطلق « سهيل بن عدي » وجنده على طريق الفراض حتّى انتهوا إلى « الرقة » وقد انفض أهل « الجزيرة » عن « حمص » إلى كورهم « نواحيهم » حين سمعوا بمقبل

---

(١) دلوك : من نواحي حلب .
(٢) رعبان : بفتح أوله وسكون ثانيه وباء موحدة ؛ مدينة بين حلب وسميساط قرب الفرات .
(٣) من قرى انطاكية .
(٤) بلدة بين حلب — والرقة .

أهل « الكوفة » فنزل عليهم ؛ فأقام محاصرهم حتى صالحوه ؛ وذلك أنهم قالوا فيما بينهم : « أنتم بين أهل العراق وأهل الشام ؛ فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء » فبعثوا في ذلك إلى « عياض » وهو في منزل « واسط » من « الجزيرة » ، فرأى أن يقبل منهم ؛ فبايعوه وقبل منهم ؛ وكان الذي عقد لهم « سهيل بن عدي » عن أمر « عياض » لأنه أمير القتال ؛ وأجروا ما أخذوا عنوة ، ثم أجابوا مُجرى أهل الذمة .
وخرج « عبد الله بن عبد الله بن عتبان » فسلك على « دجلة » حتى انتهى إلى الموصل ؛ فعبر إلى بلد حتى أتى « نصيبين » فلقوه بالصلح ؛ وصنعوا كما صنع أهل الرقة ؛ وخافوا مثل الذي خافوا ؛ فكتبوا إلى « عياض » . فرأى أن يقبل منهم ، فعقد لهم « عبد الله بن عبد الله » وأجروا ما أخذوا عنوة ؛ ثم أجابوا مُجرى أهل الذمة ، وخرج « الوليد بن عقبة » حتى قدم على بني تغلب وعرب الجزيرة ؛ فنهض معهم مسلمهم وكافرهم إلا « إياد بن نزار » فانهم ارتحلوا بغلبتهم « بعدد قليل منهم» فاقتحموا أرض الروم ؛ فكتب بذلك « الوليد » إلى « عمر بن الخطاب » [1] ولما أعطى أهل « الرقة » و « نصيبين » الطاعة ضم « عياض » سهيلاً وعبد الله اليه

---

(١) انظر ملاحق الكتاب ــ ٥ ــ قصة لجوء قبيلة « اياد » إلى الروم واخراجها بناء على تهديد « أمير المؤمنين عمر » المرجع ابن الأثير ــ الكامل ــ وكذلك الطبري احداث ١٧ هـ .

فسار بالناس إلى « حران » فأخذ ما دونها ؛ فلما انتهى اليهم اتقوه بالاجابة إلى الجزية فقبل منهم . وأجرى من أجاب بعد غَلْبهِ مجرى أهل الذمة . ثم إن « عياضاً » سرح سهيلاً وعبد الله إلى « الرهاء » فاتقوهما بالاجابة إلى الجزية ؛ وأجرى من دونهم مجراهم ؛ فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً . فكانت تلك السهولة مهجنة عليهم ؛ وعلى من أقام فيهم من المسلمين . وخلال هذه الفترة كلها ؛ كان أمير المؤمنين « عمر » مقيماً في « الجابية » يتابع تطورات الموقف ؛ حتى إذا عرف أن الأمر قد استقر للمسلمين في « الجزيرة » نظم الثغور . وضم « عياضاً » إلى « أبي عبيدة » بناء على طلب « أبو عبيدة » وصرف « سهيل بن عدي » و « عبد الله بن عبد الله » إلى الكوفة ليصرفهما إلى المشرق ؛ واستعمل « حبيب بن مسلمة » على عجم الجزيرة وحربها ؛ و « الوليد ابن عقبة » على عرب الجزيرة . فأقاما بالجزيرة على أعمالهما، وعاد « عياض بن غنم » إلى حمص [1] .

---

(١) قال « عياض بن غنم » في فتح الجزيرة :

مَنْ مُبْلغُ الأقوامِ أنَّ جُمُوعَنا
حوَتِ الجزيرةَ يَوْمَ ذاتِ زِحام .
جَمَعُوا الجزيرةَ والغياثُ فَنفَسّوا
عَمّن بِحِمْص غيابَــةَ القُدّام . =

غزوات ما وراء الدروب :

كان بجبل اللكام « جبل النصيرية أو جبال العلويين » قرية يقال لها : جُرجُومة ؛ وأهلها يقال لهم « الجراجمة » وكان هؤلاء أنصاراً للروم ؛ فقرر « أبو عبيدة » اخضاعها : ووجه « حبيب بن مسلمة » اليها من « انطاكية » فافتتحها صلحاً على أن يكونوا أعواناً للمسلمين . وفي الوقت ذاته ؛ وجه « أبو عبيدة بن الجراح » جيشاً مع « ميسرة بن مسروق العبسي » فسلكوا درب بغراس [1] من أعمال انطاكية إلى بلاد الروم . وهو أول من سلك ذلك الدرب ؛ فلقي جمعاً للروم معهم عرب من « غسان » و « تنوخ » و « إياد » يريدون اللحاق « بهرقل » . فأوقع بهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم لحق به « مالك الأشتر النخعي » مدداً من قبل « أبي عبيدة » وهو بانطاكية ، فَسَلِموا وعادوا . وسير « أبو عبيدة » أيضاً جيشاً آخر إلى « مرعش » مع « خالد بن الوليد » ففتحها على اجلاء أهلها بالأمان وأخربها . وسير جيشاً آخر مع « حبيب

= إن الأعِزَّةَ والأكـارِمَ مَعْشَـرٌ
فَضُّوا الجزيرةَ عن فراخ الهام .
غَلَبُوا الملوكَ على الجزيرةِ فانتَهوا
عَنْ غزو من يأوي بلادَ الشام .
(الطبري ٤/٥٤ ــ ٥٥)

(١) مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ .

ابن مسلمة » إلى « حصن الحدث » وإنما سمي « الحدث » لأن المسلمين لقوا عليه غلاماً حدثاً فقاتلهم في أصحابه ؛ فقيل : « درب الحدث » وقيل لأن المسلمين أصيبوا به فقيل : درب الحدث ، وكان بنو أمية يسمونه درب السلامة لهذا المعنى [1] .

في الوقت الذي كانت تنطلق فيه هذه الغزوات لما وراء الدرب من « الثغور الشامية » كانت هناك مجموعات متتالية أخرى تنطلق لغزو الروم عبر « الثغور الجزرية » . فقد توجه « عمرو بن مالك » من الكوفة حتى وصل قرقيساء وتوجه عبر درب الجزيرة إلى بلاد الروم . كما توجه « عبد الله بن معتم » بقوته من الموصل إلى « داخل بلاد الروم » وأوغل فيها .

وكانت هذه العمليات هي البدايات الاولى لتنظيم « الثغور » وتنظيم « الصوائف والشواتي » وغزو ما وراء الدروب .

النهاية :

انتهت عمليات « فتح الشام » واستقر الأمر للمسلمين ؛ وانصرف « أبو عبيدة » من الجهاد الأصغر « جهاد أعداء المسلمين » والقضاء على وجود الروم وتصفية نفوذهم . وأخذ في « الجهاد الاكبر » ؛ جهاد النفس؛ والقضاء على الظواهر السلبية التي اكتسبها المسلمون بحكم احتكاكهم بالروم والاقامة في بلاد واسعة حديثة العهد بالاسلام . فقد بلغ « أبا عبيدة »

---

(١) الكامل في التاريخ ٣٤٦/٢ .

« أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب ؛ منهم « ضرار بن الأزور » و « أبو جندل » . فكتب إلى أمير المؤمنين « عمر » وأجابه « عمر » (وأمره أن يدعو بهم على رؤوس الناس) ؛ فيسألهم : (أحرام الخمر أم حلال ؟ فان قالوا : حلال ، فاضرب أعناقهم ؛ وان قالوا : حرام ؛ فاجلدهم ثمانين جلدة واستتبهم) فدعا بهم ؛ فسألهم ؛ فقالوا : (بل حرام) فجلدهم ، فاستحيوا فلزموا البيوت ؛ وانقطعوا عن الناس – ووسوس أبو جندل ؛ فكتب « أبو عبيدة » إلى « عمر » إن « أبا جندل » قد وسوس ؛ إلا أن يأتيه الله على يديك بفرج ؛ فاكتب اليه وذكره ؛ فكتب اليه عمر : (من عمر إلى أبي جندل : « إنَّ الله لا يَغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فَتُبْ ؛ وارفع رأسك وابرز ولا تقنط ؛ فإن الله عزوجل ؛ يقول : (يا عِبَادِيَ الّذين أسْرفُوا على أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطوا مِنْ رحمة الله إن الله يَغْفِرُ الذُنوب جميعاً إنّهُ هُوالغَفورُ الرَّحيم) فلما قرأه عليه «أبو عبيدة» تطلّق وأسفر عنه . وكتب إلى الآخرين بمثل ذلك فبرزوا ؛ وكتب إلى الناس : « عليكم أنفسكم ؛ ومن استوجب التغيير فَغَيّروا عليه؛ ولا تُعيّروا أحَداً فيفشوا فيكم البلاء » . وكان « خالد ابن الوليد » قد غنم غنائم كبيرة من غزاته فيما وراء الدروب ؛ وأسرف في توزيع المنح والهدايا ، وعزله أمير المؤمنين « عمر » . ولكن « أبو عبيدة » امتنع عن ابلاغ « خالد » نبأ عزله ؛ وأقام « خالد » في « حمص » متحيراً لا يدري أمعزول أو غير

معزول ، ولا يعلمه « أبو عبيدة » بذلك تكرمة وتفخمة ، فلما تأخر قدومه على « عمر » الذي بعث يطلبه اليه ، ظن الذي كان ؛ فكتب إلى « خالد » بالاقبال اليه ؛ فأتى خالد « أبا عبيدة » فقال : (رحمك الله ، ما أردت إلى ما صنعت ، كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم) فقال « أبو عبيدة » : (إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدأً ؛ وقد علمت أن ذلك يروعك) .

وكان عام ١٨ للهجرة عام قحط ؛ سمي بعام الرمادة (لان الريح كانت تحمل تراباً كالرماد) وانتشرت المجاعة في « الجزيرة » وكتب عمر إلى أمراء الامصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ؛ ويستمدهم ، فكان أول من قدم عليه « أبو عبيدة بن الجراح » في أربعة آلاف راحلة من طعام ؛ فولاه قسمتها فيمن حول المدينة ؛ فلما فرغ ورجع إليه ؛ أمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال : « لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين ؛ إنما أردت الله وما قَبِله ، فلا تدخل عليَّ الدنيا » فقال : « خذها فلا بأس عليك إذ لم تطلبه » فأبى — أبو عبيدة — فقال له « عمر » : « خذها فاني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا ؛ فقال لي مثل ما قلت لك ، فقلتُ له كما قلتَ لي فأعطاني » فقبل « أبو عبيدة » وانصرف إلى عمله . وتتابع الناس ؛ واستغنى أهل الحجاز ؛ وأحيوا مع أول الحيا . ورجع « أبو عبيدة » إلى الشام ؛ حيث كان طـــاعون

« عمواس »[1] الذي لم ير الناس مثله (طمع له العدو في المسلمين ؛ وتخوفت له قلوب المسلمين ، كثر موته ؛ وطال مكثه ؛ مكث أشهراً حتى تكلم في ذلك الناس) وفي هذا الطاعون ؛ أصيب « أبو عبيدة » وكان يدعو الله « اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة » فخرجت في خنصره « بثرة » فجعل ينظر اليها ، فقيل له إنها ليست بشيء ، فقال : « إني لأرجو أن يبارك الله فيها ؛ فإنه إذا بارك في القليل كان كثيراً » . وعلم أمير المؤمنين « عمر » باصابة « أبي عبيدة » وأراد أن يستخرجه من منطقة الوباء . فكتب له يستدعيه إلى المدينة ، فرفض أبا عبيدة وفضل البقاء مع جنده ، يقاسمهم مصابهم ، حتى مضى إلى لقاء ربه . وكان لذلك وقع أليم في نفوس المسلمين جميعاً ؛ وعندما طُعِنَ أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنه ؛ رغب اليه الصحابة أن يستخلف عليهم . فقال :

« من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : « إنه أمين هذه الأمة » .

---

(١) عمواس : هي كورة « ناحية » من فلسطين بالقرب من « بيت المقدس » وهي على أربعة أميال من « الرملة » على طريق بيت المقدس – معجم البلدان ٦/٢٢٥ .

الفصل الثاني

« أبو عبيدة بن الجراح » وفن الحرب

موقع « أبو عبيدة » من فن الحرب :

آ – في الاستراتيجية العليا .

١ – الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة .

٢ – بناء المجتمع الجديد .

٣ – وضوح الهدف .

٤ – الحرص على العنصر العربي « دعامة الاسلام » .

٥ – استراتيجية الحرب التشتيتية .

٦ – استراتيجية الهجمات الوقائية .

ب – في مبادىء الحرب :

١ – المباغتة .

٢ – أمن العمل .

٣ – القدرة الحركية .

٤ – المبادأة واستخدام القوة الهجومية .

٥ – مبدأ الاقتصاد بالقوى .

٦ – المحافظة على الهدف .

٧ – وحدة القيادة .



موقع « أبو عبيدة بن الجراح » من فن الحرب

« لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ،
فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول :
إنه أمين هذه الأمة » .

(عمر بن الخطاب)

تولى « أبو عبيدة بن الجراح » أمور الحرب منذ المرحلة المبكرة لظهور الاسلام ؛ فكان من رواد الفتح الأوائل ؛ وكان من كبار القادة الذين رسموا على صفحة التاريخ الخطوط الاولى « لفن الحرب عند العرب المسلمين » . وقد كانت تلك الفترة من أخصب المراحل — ان لم تكن الفترة الوحيدة — في تاريخ العرب قديماً وحديثاً والتي أخرجت للدنيا جيلاً كاملاً وفريداً من القادة ؛ كلهم على درجة عالية من الكفاءة القيادية ؛ حتى يصعب تقويم الأكثر كفاءة بينهم أو الأكثر قدرة فيهم عمن سواه . وقد لا تكون هناك حاجة للقول أن الفضل في ذلك

للاسلام الذي صهر العرب في بوتقته ثم بعثهم بعثاً جديداً . ومن المحتمل هنا القول إن ظهور هذا الجيل من « القادة » انما هو برهان على « الاستعداد الطبيعي للعرب » وانه لم يكن أكثر من استجابة للتحديات التي كان يجابهها العرب « وفقاً لمبدأ التحدي والاستجابة » . ولكن ؛ ومع الاعتراف بكفاءة الانسان العربي وقدرته ؛ إلا أنه لم يتمكن ؛ لا في القديم ولا في الحديث ؛ أن يحقق الاستجابة المناسبة للتحدي ؛ وهو — في الواقع « يستجيب للتحديات » بصورة مناسبة ؛ ولكن دون مستوى التحديات باستمرار ؛ وضمن حدود « المحافظة على البقاء » في حين كانت استجابة الانسان العربي المسلم ؛ واستجابة القائد المسلم ؛ هي فوق التحديات ؛ وبذلك أمكن تحقيق تلك الانتصارات الرائعة والوصول إلى تلك المنجزات الخالدة . ومن هنا يظهر التلاحم الوثيق بين « مدرسة الاسلام الدينية » وبين « العقيدة القتالية » للمسلمين ؛ والتي اضطلع « القادة العرب » بتطبيقها على نحو أفضل ما يكون عليه التطبيق ؛ واضعين في اعتبارهم « مجموعة الظروف » الخاصة بكل موقف من المواقف . فاكتسبت مبادىء « فن الحرب » بذلك قدراً من المرونة لم تعرفه من قبل .

وتظهر أهمية الدور القيادي « لأبي عبيدة بن الجراح » لا كرائد من رواد الفتح الأوائل ؛ ولا كقائد أمكن له تطبيق « مبادىء الحرب » بمرونة كبيرة وفقاً « للمواقف القتالية » التي كانت تجابه قوات المسلمين . وانما تظهر أهمية هذا

الدور بتحديد العلاقة بين « السياسة الاستراتيجية » للفتح والتي كان يمارسها الخليفة أبو بكر ومن بعده أمير المؤمنين عمر ؛ وبين « قيادة العمليات » والتي كان يمارسها هو فوق مسرح عمليات بلاد « الشام » . ولقد كان تحديد هذه العلاقة بصورتها الواضحة هو العامل الاساسي والحاسم فيما أحرزه المسلمون من انتصارات ، وفيما حققوه من أعمال ناجحة .

لقد عاش « أبو عبيدة » مع الرسول ﷺ ؛ وتعلم منه « وحدة القيادة السياسية والعسكرية » في مفهومها الحديث ؛ وكانت وحدة القيادة مرتبطة بالسلطة الدينية ؛ وهي سلطة مطلقة في غير استبداد ؛ تستند إلى مبدأ « الشورى » ان لم يكن هناك تشريع في « القرآن الكريم » ومارس « أبو عبيدة » بعد ذلك « دور القيادة في العمليات » ضمن هذا الاطار ؛ ثم انتقل بعد ذلك لقيادة العمليات في الشام ؛ ولكن ابتعاده عن « مركز السلطة » لم يحمله على ممارسة دور قيادي يتجاوز حدود واجباته « كقائد للعمليات » وترك لأمير المؤمنين ؛ باستمرار ؛ دور قيادة السياسة — الاستراتيجية . وقد كانت شخصية أمير المؤمنين « عمر » قوية ولا تسمح أصلاً بالتجاوز ؛ ولكن الخليفة الأول « أبو بكر » رضي الله عنه ؛ كان أكثر تساهلاً بالنسبة لقادة عملياته ؛ فكان يمنحهم قدراً أكبر من حرية العمل ؛ ورغم ذلك ؛ فقد بقي « أبو عبيدة » في جميع الظروف قائداً رائعاً للعمليات ؛ ولم يحاول أبداً ممارسة قدر من « حرية العمل » يتجاوز متطلبات العمليات أو يصل إلى مرحلة

تقرير السياسة – الاستراتيجية .

لم يكن « أبو عبيدة » يقيناً بالقائد الضعيف الشخصية ؛ أو القائد العاجز عن اتخاذ القرار المناسب وتنفيذه في الوقت المناسب ؛ وتبرهن متابعة « سيرته القيادية » أنه كان حازماً في المواقف التي تتطلب الحزم ؛ وكان يستشير قادته في كثير من الامور ؛ ولكنه كان يتخذ قراره دائماً بحسب تحليله للموقف وتقديره للمعطيات الثابتة والواضحة أمامه ؛ وعلى هذا فانه من المحال تفسير عودة « أبو عبيدة » إلى الخليفة « أبو بكر » وإلى أمير المؤمنين « عمر » من بعده ؛ في تقرير أمور الحرب ، بسبب الضعف أو عدم الحزم أو القصور في الكفاءة القيادية .

كان « أبو عبيدة بن الجراح » بحسب ما هو واضح من سيرته القيادية ؛ نسيجاً وحده في « فن الحرب » ذلك أنه كان يضطلع بدوره القيادي وهو مقتنع بما يجب عليه عمله ؛ ومدرك للحدود التي يجب عليه التحرك ضمنها ؛ فكانت « حرية العمل » المتوفرة له ضيقة جداً عند النظر اليها من زاوية مسرح العمليات ؛ وهي « واسعة جداً » عند النظر اليها من زاوية السياسة – الاستراتيجية إذ كان يتمتع في هذه الحالة بالامكانات المتوفرة له علاوة على تلك التي يتم حشدها لمصلحته ؛ سواء أخذت هذه الامكانات شكل « دعم مباشر » أو أخذت شكل « حرب تشتيتية » في مسرح آخر يرتبط – بالنتيجة – مع مسرح عملياته .

انطلاقاً من هذا المفهوم ؛ استطاع « أبو عبيدة » المحافظة على مبدأ « وحدة القيادة » وقد كان حرصه على ترك « وحدة القيادة في السياسة – الاستراتيجية » مماثلاً لحرصه على التمسك بمبدأ وحدة القيادة على « مستوى العمليات » . كل ذلك في رفق كبير ؛ وتواضع رائع ؛ جعل من قيادته نموذجاً لما يجب أن تكون عليه العلاقة مع القيادة العليا ومع القيادات التابعة . واكتساب ثقة الجميع لتنفيذ الواجب . وتعود هنا مرة أخرى الصورة الخالدة والتي حددتها العقيدة الدينية الاسلامية في مجال العلاقات بين « المسلمين » بعضهم ببعض ؛ وهي العلاقات التي رسمت كل أبعادها عند التطبيق في وسط جند المسلمين .

وتبرز كفاءة « أبو عبيدة بن الجراح » على مستوى العمليات ، في تقديره الصحيح للمواقف الأمر الذي كان يساعده على اتخاذ القرارات المناسبة ؛ وتنفيذها في الوقت الملائم . ويمكن الانتقال بعد ذلك إلى مجال تطبيق « مبادىء الحرب » في فترة كانت لا تزال فيها هذه المبادىء تمر بمرحلة التكون ؛ ففي تلك الفترة ، تولى « أبو عبيدة قيادته » وكانت الحروب مستمرة ؛ والمعارك متتالية متلاحقة ؛ وكان لكل معركة ظروفها الخاصة ؛ فكان من المحال تطبيق « مبادىء الحرب » بصورة جامدة أو متيبسة ؛ ولكن استخدام تلك المبادىء وتطويرها كان يتطلب كفاءة عالية ، ولم يكن « أبو عبيدة » يفتقر إلى تلك الكفاءة ؛ وبذلك أمكن له تحقيق الانجازات الرائعة في تثبيت « مبادىء الحرب » وتطويرها .

لم تكن كفاءة « أبو عبيدة » على مستوى العمليات وفي جميع الاحوال إلا برهاناً على إمكانات « أبو عبيدة » الكبيرة لممارسة قيادة أكبر من مستوى العمليات ؛ وكان « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ؛ أعرف الناس بالرجال ؛ وكان يتمنى لو عاش « أبو عبيدة » حتى يترك له « إمارة المؤمنين » ولا ريب ان ذلك دليلاً على ما تتوفر « لأبي عبيدة » من قدرات قيادية كبيرة أبرزها « الامانة » و « العدل » و « القدرة القيادية » و « التقدير الصحيح للمواقف » وعلى هذا فقد كان « أبو عبيدة » فوق « القيادة التي مارسها » وكان ذلك في جملة الاسباب التي ساعدت على نجاحه . ويبقى بعد ذلك ؛ أبو عبيدة ؛ نموذجاً للانسان المسلم ؛ المؤمن بربه ؛ المؤمن بقدره ؛ المعرض عن الدنيا ؛ والعامل للآخرة ؛ ولم تكن تلك الفضائل كلها إلا بعضا من المميزات التي أبرزت « أبو عبيدة بن الجراح » وجعلته علماً فوق أعلام المسلمين .

آ ــ في الاستراتيجية العليا

١ ــ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة :

انطلق « أبو عبيدة » بجيشه إلى الشام ؛ وتوافق ذلك مع حدوث « مأساة خالد بن سعيد » الذي أهمل حماية مؤخرته ؛ ولم يهتم كثيراً بالمحافظة على خطوط مواصلاته فكان في ذلك كارثة رافقت بداية الفتوح . وقد أدرك قادة المسلمون ــوفي طليعتهم « أبو عبيدة » هذا الدرس ؛ فآلوا على أنفسهم على التحرك باستمرار من قاعدة قوية ومأمونة ؛ بحيث (لا يؤتى المسلمون من خلفهم) . وعندما تداعت « الروم » لحرب المسلمين ؛ وأراد « هرقل » توجيه جيوشه للقضاء على كل جيش بمعزل عن الجيوش الاخرى مستفيداً من تفوقه الكبير بالقوى والوسائط ؛ أسرع قادة المسلمين بجيوشهم إلى « الجولان » بهدف المحافظة على الاتصال بقاعدتهم الاساسية في « المدينة المنورة » . ولقد بقيت نسبة تفوق الروم على المسلمين ثابتة لم تتغير ؛ ولكن تجمع المسلمين ضمن لهم مزيداً من حرية العمل ؛ كما ضمن لهم المحافظة على الاتصال بقاعدتهم .

واستمر « أبو عبيدة » في تطبيق مبدأ « الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة » على مستوى العمليات ؛ وبرز ذلك عند فتح «دمشق» حيث عمل « أبو عبيدة » على توجيه مجموعات قتالية من قوة « الفرسان » لحماية مسرح العمليات ؛ فكانت قوة « ذا الكلاع الحميري » على محور « دمشق ــ حمص » وقوة «شرحبيل بن حسنة» ضد قوات « فحل » وقوة « علقمة بن حكيم » على محور دمشق ــ فلسطين ؛ بمثابة حماية لقاعدة العمليات ؛ وبعد ذلك لم يتحرك « أبو عبيدة » نحو واجبه الأساسي في فتح « شمال دمشق » حتى تمت تصفية قوات الروم في « فحل ». وتابع « أبو عبيدة » تحركه نحو بعلبك . ولم يغادرها حتى تم فتحها ؛ وكان مما قاله لجنده (اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم ؛ فان بقيت كانت وبالاً على من صالحتم؛ ولا تقدرون على سفر ولا على غيره) وكذلك الأمر عند فتح « حمص » فقد استمر الحصار طويلاً ؛ ولم يحاول « أبو عبيدة » التحرك قبل احتلال المدينة وتصفية المقاومة فيها . واستمر العمل بهذا المبدأ حتى تم تحرير سوريا كلها .

لقد رافق « أبو عبيدة » رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ واشترك معه في حروبه وغزواته وقاد بعض سراياه ؛ وعرف منه أسلوب إقامة القاعدة القوية والمأمونة ؛ ولم تكن الهجرة إلى « المدينة المنورة » في وجه من وجوهها إلا بحثاً عن القاعدة القوية والمأمونة ؛ كما أن اتخاذ هذه القاعدة وتقويتها هو الذي ضمن

للمسلمين « حرية العمل » لتطوير جهادهم ؛ وحافظ « أبو عبيدة » على الدروس التي تعلمها من مدرسة الإسلام وعمل على تطويرها بحسب المواقف ؛ فكان في ذلك بعض عوامـــل نجـــاحه .

لم يكن أسلوب « أبو عبيدة » لاقامة القاعدة القوية والمأمونة ؛ يقف عند حدود ضمان « أمن القوات » أو تحقيق مبدأ « حرية العمل العسكري » وانما كان يشمل « التأمين الاداري للقوات » وتوفير الظروف « لاقامة المجتمع الاسلامي الجديد » كل ذلك مع « الحرص على العنصر العربي – دعامة الاسلام » وهكذا لم يكن تطبيق مبدأ « الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة » هدفاً في حد ذاته ؛ وإنما كان وسيلة لتحقيق « الهدف الكبير » وهو نشر الاسلام . وكان ذلك سبباً في تقييد « حرية العمل العسكري » الذي جاء مقنناً بدقة ؛ ومنظماً باحكام ؛ بحيث يقتصر العنف على مسرح العمليات ؛ وبحيث لا يتجاوز العنف حدود الصراع المسلح في جبهة القتال . وضمن هذا الاطار ذاته ، حرص « أبو عبيدة » على تنظيم « التأمين الاداري للقوات » بحيث يقوم المسلمون بتأمين متطلباتهم عن « طريق الشراء » وعدم الحاق الضرر بممتلكات المواطنين أو أرزاقهم ؛ فكـــان في ذلك تحقيق هدف السياسة – الاستراتيجية ؛ أو السياسة العليا ؛ وهو (خوض الحرب بما لا يتعارض مع إقامة « سلم مقبل ») . وكان « أبو عبيدة » في ذلك من الرواد الأوائل الذين سبقوا الدنيا بادراك هدف

الحرب وتطبيق الوسائل الضرورية للوصول إلى الهدف ، قبل أن يحاول العالم معرفته بأكثر من عشرة قرون . ومن المحتمل هنا القول إنه لم يكن « لأبي عبيدة » فضل في ذلك فهو قد تعلم من مدرسة الاسلام الأخذ بهذه السياسة الاستراتيجية ؛ وهو قد التزم أيضاً **بوصية « أبو بكر » الخالدة والمعروفة ومنها « لا تقتلوا ... ولا تقطعوا شجرة مثمرة ... ولا تقتلوا وليداً ... الخ » ... وتلك هي حقيقة لا يمكن تجاوزها أو التنكر لها ؛ ولكن ألا يمكن لقائد العمليات إيجاد الذرائع وأبرزها ضمان « حرية العمل العسكري » لو لم يكن مؤمناً حتى الأعماق بهذه السياسة الاستراتيجية ، هذا من ناحية ،** ومن ناحية أخرى يمكن التساؤل أيضاً : هل كان باستطاعة « أبي عبيدة » تطبيق هذه السياسة الاستراتيجية بمثل تلك الدقة **الرائعة لو لم يكن المجاهدون في سبيل الله على مثل ما كان عليه قائدهم في إيمانهم وفي إخلاصهم** ، وفي « حبسهم لأنفسهم » ؟ ... لقد تم فتح « دمشق » نصفها حرباً ؛ ونصفها سلماً ؛ وقد أجرى ما تم فتحه حرباً مجرى الصلح السلمي ؛ وكان ذلك قيداً ثقيلاً أرهق المقاتلين المسلمين ؛ وحرمهم من الانتقام لما أصابهم من بؤس طوال فترة الحصاد ؛ ومنعهم من استخدام العنف للقضاء على أولئك الذين أنزلوا بهم خسائر **فادحة ؛ ولكن هل كان « للانتقام » أو « للحقد » وجود في قاموس حرب المسلمين** بعد أن أطلق الرسول ﷺ من على منبر « مكة المكرمة » صيحته الخالدة « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وعفى عمن ناصبوه أشد العداء ؟

لقد قاد « أبو عبيدة » طلائع فتح الشام التي طالما عانت من ظلم الروم ؛ ولكن طول خضوع الشام لقوات الروم ترك رواسب ثقيلة ؛ كما ان التعامل مع الروم طوال عهود متتابعة أقام نوعاً من العلاقات التي لم يكن من السهل تصفيتها دفعة واحدة . وعلى هذا فقد كان من المحال تحقيق أي نجاح لو تم ابدال العلاقات بعلاقات مماثلة ؛ بمعنى أنه لو تم اتباع الاساليب والطرائق التي كان يطبقها الروم ؛ وعلاوة على ذلك ؛ فقد كان هدف الحرب في الشام والعراق ؛ هو هدف تحرري « بمفهومه الحديث » فكان لزاماً إقامة القاعدة الجديدة على أسس ومبادىء تختلف عن تلك التي بقيت سائدة طوال عهود مديدة وقد ضمنت العقيدة الدينية الاسلامية هذه الاسس والمبادىء ؛ الا ان تطبيق تلك الاسس والمبادىء في ظروف الحرب لم تكن عملية سهلة ؛ وكانت تتطلب قبل كل شيء معالجة كل موقف بمعزل عن المواقف الاخرى ؛ بالاضافة إلى المعالجة الاجمالية للمواقف كلها ؛ وهنا تبرز كفاءة « أبو عبيدة » القيادية .

لقد عرف « تاريخ الحرب » في القديم والحديث جيوشاً كثيرة خرجت لاقامة قواعد جديدة لها ؛ ولكنها فشلت كلها في الوصول إلى أهدافها بسبب تفضيل « حرية العمل العسكري » على « إقامة القواعد القوية والمأمونة » وبسبب عدم نجاح القادة في تحويل المنطلقات النظرية والمبادىء إلى واقع عملي . **ولقد تعرضت « قاعدة بلاد الشام » إلى هجمات وغزوات مستمرة ؛ واستطاعت رغم ذلك الصمود لكل التحديات والخروج من**

كل الازمات وهي محافظة على قوتها وصلابتها . وقد كان « لأبي عبيدة بن الجراح » ومن تبعه فضل في **ذلك** — وقد تحمل الرواد الاوائل — يقيناً — الاعباء الثقيلة ؛ وقدموا التضحيات غير المحدودة حتى أمكن لهم اقامة القاعدة القوية والمأمونة والتي أفاد منها الامويون بعد ذلك فجعلوها قاعدة لاطلاق جيوش المسلمين الى أرجاء الدنيا حتى وصلت إلى الصين وفرنسا . **وحفظت « دمشق » للدنيا « أمجاد العرب المسلمين »** .

٢ — بناء المجتمع الجديد :

لم يخرج العرب المسلمون من جزيرتهم « بطراً » أو لحاجة عرضت لهم ؛ أو بحثاً عن مغنم من مغانم الدنيا . وإنما خرجوا ابتغاء وجه الله الذي حملهم أمانة تعريف الدنيا برسالة الاسلام . وكان حمل الامانة هو « هدف الحرب » وهو « غاية السلم » في حروب العرب المسلمين ويظهر **ذلك** ؛ أكثر ما يظهر ؛ في حروب « أبو عبيدة بن الجراح » وقد يكون السبب في **ذلك** هو أن هذه الحروب قد جاءت في بداية الفتوح ؛ كما يحتمل أن يكون السبب هو وجود عدد كبير من الصحابة في جيش فتح الشام وكلهم خرجوا « للآخرة » وليس « للدنيا » فأعطاهم الله « ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . كما يحتمل أيضاً أن يكون السبب في **ذلك** هو شخصية « أبو عبيدة » المعرضة عن الدنيا ومتاعها ؛ والمقبلة على الآخرة بايمان لا حدود لها ويقين لا يتزعزع . وقد يكون

السبب في ذلك اجتماع العوامل السابقة كلها ؛ ولكن تبقى شخصية « أبو عبيدة » هي « المهيمنة » وهي التي وضعت حجر الاساس في « بناء المجتمع الجديد » .

لقد مضى « أبو عبيدة » إلى الشام وهدفه إقامة المجتمع الجديد ، فكان يحرص على تحقيق هدفه عن طريق الصلح كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ؛ وكان يعامل السكان « غير المحاربين » بما يفرضه عليه حمل الرسالة ؛ وأخذ الناس في معرفة فضائل الاسلام عن طريق قائد المسلمين ؛ فاستجابوا له ؛ وأقبلوا على دعوته ؛ وتعرفوا على ما يضمنه المجتمع الجديد من خير للانسان كفرد ؛ وما يحمله من بركة للمجتمع ؛ فأخذت جموع أهل الشام في التحول إلى مجتمع الاسلام والانضمام له ؛ ودعمه . **وتابع « أبو عبيدة » عمله في بناء المجتمع الجديد ؛ برفق ويسر ؛ دون إكراه ... ؛ بالمثل الأعلى ؛ وبالخلق القويم ؛ وبالعدل قبل كل شيء ؛ وبذلك سادت قيم الاسلام وازدهرت .**

لم يكن باستطاعة « أبو عبيدة » الاضطلاع ببناء المجتمع الجديد لو لم تكن لديه قاعدة فكرية وأسس تنظيمية ضمنتها العقيدة الاسلامية ؛ كما أنه لم يكن باستطاعة « أبو عبيدة » أيضاً بناء مجتمع المسلمين في الشام لو لم تكن لديه « الأجهزة — أو — الكادرات » بحسب التسميات الحديثة . وقد أمكن بناء المجتمع وفقاً للتوازن الدقيق والمحكم في هذه المعادلة « عقيدة وقاعدة وقيادة » ولكن هل كانت هذه المعادلة هي

السبب في النجاح الرائع الذي أرسى قواعده « أبو عبيدة بن الجراح » ؟ لقد كان باستطاعة القيادة الناجحة تحقيق الاستقرار طوال فترة وجودها ؛ وقد حدث ذلك مرات كثيرة في التاريخ ولكن هذا النجاح بقي مرتبطاً بقوة القادة وزال بزوالهم ؛ كما أن تاريخ الحروب يظهر نماذج كثيرة للجيوش التي استطاعت فرض وجودها وهي قوية ؛ ثم زال أثرها مع استنزاف قوة الجيوش وانحلالها ؛ وعلى هذا فان ما حققه « ابن الجراح » انما يرتبط بالعقيدة الاسلامية أكثر مما يرتبط بقوة الجيوش أو بتأثير القادة ونفوذهم وقوة شخصيتهم ؛ وكانت قوة « ابن الجراح » بعد ذلك في تطبيق العقيدة الدينية للمسلمين ؛ وفي ايصالها إلى القلوب والعقول ؛ فتكونت بذلك قاعدة المجتمع الجديد ؛ وأصبحت هي القوة الحقيقية التي لم تتزعزع ولم تضعف رغم زوال « ابن الجراح » ورغم انصراف الجيوش عن البلاد المفتوحة إلى بلاد بعيدة تمتد مع امتداد العالم القديم . ولم تعد هذه القاعدة الجديدة بحاجة للجيوش من أجل حمايتها ؛ وانما باتت هي التي تشكل الجيوش بعد أن احتضنت الاسلام ديناً لها ؛ وباتت وهي تضمن الحماية لنفسها وتضمن قوة الدفاع لغيرها ؛ وذلك هو الانجاز الرائع لما حققه « أبو عبيدة ابن الجراح » في بناء المجتمع الجديد .

لم يكن « أبو عبيدة » وهو يبني « المجتمع الجديد » في الشام يتجاهل الدور الكبير الذي يضطلع به المجاهدون في سبيل الله ؛ فكان يحرص على « صيانة القيم » التي يحملها هؤلاء

المجاهدون ويسهر على بقاء « كل مسلم » نموذجاً لما يجب أن يكون عليه أفراد المجتمع الجديد . وليس من الغريب بعد ذلك أن يتخذ « أبو عبيدة » موقفاً صلباً من كل ظاهرة تتنافى والعقيدة الاسلامية . فعامل القلة التي سمحت لنفسها بشرب الخمر بقسوة ؛ والتزم بقوله لهم « فهل أنتم منتهون » . ثم هو يقيم الحد على المنحرفين الذين يفرضون على أنفسهم « سياسة العزل » خجلاً من المجتمع الاسلامي المحيط بهم . وتبقى قسوة « أبو عبيدة » في حدود « الشرع » وضمن إطار ضرورات « بناء المجتمع الجديد » فعندما علم أن أحد المنحرفين « أبا جندل » قد أضر بنفسه نتيجة لعزلته ؛ كتب إلى الخليفة « عمر » يطلب اليه توجيه رسائل إلى « المنحرفين » يطلب اليهم الخروج عن عزلتهم بعد أن نزل بهم العقاب العادل ؛ مع الطلب إلى مجتمع المسلمين بعدم استخدام القسوة في عقاب المنحرفين بأكثر ما تفرضه « حدود الشرع » مع الطلب أيضاً بمراقبة كل انحراف ؛ فكان كل مقاتل مسلم مسؤولاً عن ممارسة الرقابة الذاتية ؛ على نفسه وعلى الآخرين ؛ حتى لا يصاب المجتمع الاسلامي بالأمراض التي خلفها المجتمع القديم والتي لا زالت تعيش في حدود ضيقة .

وتظهر وثيقة الصلح التي عقدها « أبو عبيدة » مع أهل « دمشق » وكذلك وثائق الصلح المماثلة مع أهل بلاد الشام ؛ الاسس والمبادىء العامة لاقامة المجتمع الجديد . ولعل أبرز تلك الأسس هي :

١ – ضمان الأمن – لأهل الجزية – على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم وممارسة شعائرهم الدينية بشرط عدم الاساءة إلى المسلمين ؛ بالقول أو بالعمل ؛ وبشرط عدم استحداث أمور تتعارض مع ضرورات البناء .

٢ – المحافظة على امتيازات العرب المسلمين ؛ في لباسهم وسلوكهم ومجتمعهم ؛ وعدم السماح لغير المسلمين بتقليدهم ؛ كل ذلك بهدف خلق حوافز تدفع غير المسلمين بدخول مجتمع المسلمين والتحرر من رواسب المجتمع القديم ؛ هذا إلى جانب التركيز على « أمن المسلمين » وتأمين الحماية لهم .

٣ – تعهد أصحاب البلاد بالتعاون مع المسلمين ؛ واعلامهم عن كل تحرك للعدو ؛ ويهدف ذلك – بالدرجة الاولى – إلى القضاء على روابط المجتمع القديم ؛ واقامة المجتمع الجديد على أسس سليمة .

لقد كان المجتمع الاسلامي « مجتمع فضائل خلقية » ومجتمع « قيم معنوية » وكان للمجتمع القديم في الشام قيم مغايرة ومبادىء مختلفة ؛ فكان لا بد « لأبي عبيدة بن الجراح » من « هدم المجتمع القديم » واقامة « المجتمع الجديد » في وقت واحد . ولم تكن عملية الهدم والبناء عملية سهلة ؛ لا سيما مع بقاء التحريض الخارجي ؛ وقد استطاع العرب المسلمون ردع الروم عن التدخل ، واشغالهم عن المسلمين بأنفسهم وذلك عن طريق نقل التهديد إلى بلاد الروم . وأمكن ضمان الاستقرار الضروري

لبناء المجتمع الجديد . مجتمع الفضائل الخلقية الاسلامية وقيمه المعنوية .

وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن الفضائل الخلقية والقيم المعنوية قد جاء بها الاسلام للدنيا كلها ؛ ولو أنه حمل العرب أمانة تعريف الدنيا بها . وعلى هذا فانه من الطبيعي أن يستجيب عرب الشام لدعوة الاسلام ، وأن يحتضنوها ويحملوا رايتها ؛ مما يسهل عملية اقامة المجتمع الجديد ؛ ولكن هل كانت عملية اقامة المجتمع الجديد على مثل ما توصف به من السهولة ؟ يقيناً لا ! بدلالة قيام عرب الجزيرة بالتعاون مع الروم طويلاً بعد فتح الشام ؛ وبدلالة نزوح قبائل عربية « كقبائل غسان واياد » وانضمامها إلى الروم ؛ وتفضيلها الروم على العرب . ويمكن تفسير هذه الظاهرة بانها « مجرد الولاء للقديم » ولكنها ظاهرة تبرهن على كل حال أن عملية هدم المجتمع القديم وإقامة المجتمع الجديد لم تكن عملية سهلة أو بعيدة عن المخاطر . ولكن « أبو عبيدة » ومعه جيش المجاهدين ، كانوا بفضل ايمانهم فوق كل صعاب وأكبر من كل خطر ؛ وبذلك أمكن لهم تحقيق النجاح في بناء المجتمع الجديد .

٣ ـ وضوح الهدف :

وجد العرب أنفسهم من خلال إيمانهم وإسلامهم ؛ وعرفوا قوتهم من خلال بعثهم الجديد ؛ وأصبحت أهدافهم في الحياة مغايرة لتلك التي كانت لهم قبل الاسلام ؛ واندمجت أهدافهم الخاصة بالهدف الكبير الذي رسم طريق الاسلام ؛ وأصبحت النظرة إلى الحياة كلها تمر عبر هذا الهدف الكبير ؛ وتبين الهدى من الغي ؛ وأشرقت البصائر فأضاءت لها الدنيا ؛ ومضت خيول المسلمين إلى الهدف ، بوضوح تام دون لبس أو غموض . وذلك هو العامل الذي ساعد قادة العرب المسلمين على التمييز بين « غاية السلم » وبين « هدف الحرب » ودمجهما جميعاً في سياسة ــ استراتيجية رائعة في تكاملها ؛ خالدة في مميزاتها وخصائصها . ولم يكن « أبو عبيدة بن الجراح » في كل ذلك الا رائداً من رواد تلك السياسة ــ الاستراتيجية ؛ والا قائداً من قادة الفتح الذين تمثلت فيهم كل خصائص العقيدة الجديدة ومميزاتها وفضائلها . ومن الواضح بعد ذلك : أن قضية « وضوح الهدف » عند « أبي عبيدة » وعند سواه من قادة العرب من المسلمين أيضاً لم تكن مرتبطة بمعرفة الآخرين قدر ارتباطها بمعرفة العرب المسلمين لأنفسهم ؛ ولما يريدونه . وقد تكون قضية « وضوح الهدف » بدهية ومسلم بها على مستوى السياسة ــ الاستراتيجية نظراً لارتباطها بالعقيدة الاسلامية ؛ ولكن ترجمة مثل هذا الوضوح على

مستوى قيادة العمليات ، وعلى مستوى التنفيذ التعبوي « التكتيكي » هو المجال الرحب أمام قادة العرب المسلمين لابراز كفاءتهم القيادية ؛ والبرهان على امكاناتهم الخاصة وقدراتهم الذاتية ؛ وفي هذا المجال كان النجاح الرائع « لأبي عبيدة بن الجراح » .

عندما توجهت جيوش المسلمين إلى الشام وجه « هرقل » أربعة جيوش لتدمير المسلمين ؛ وأدرك « أبو عبيدة » كما أدرك قادة جيوش المسلمين « هدف هرقل » فقرروا الانسحاب إلى الجولان ؛ والتجمع فيها ؛ وبعد اليرموك ؛ لم يعرف « أبو عبيدة » إلى أين يتوجه ؛ فكتب إلى الخليفة « عمر » فأجابه الخليفة وحدد له الأهداف المتتالية ؛ وبعد « فحل » مضى « أبو عبيدة » إلى « بعلبك » و « حمص » وبقية مدن الشمال ؛ ثم بدأ بانطاكية ؛ ومنها إلى « اللاذقية » وبقية مدن الساحل . وعندما هاجم الروم عام ١٧ هـ مدينة « حمص » استشار « أبو عبيدة » قادته فيما يجب عمله ؛ واتخذ قراره بالانسحاب من « حمص » وإعلام الخليفة « عمر » . وعندما عرف « أبو عبيدة » أن الموقف قد أصبح لصالحه ؛ قام بالهجوم ؛ دون انتظار ؛ ودون أي تأخير بحيث وصلت قوات الدعم من « الكوفة » بقيادة « القعقاع بن عمرو التميمي » وذلك بعد انتهاء المعركة بأيام ثلاثة . ويبرهن هذا العرض السريع أن عوامل « الوضوح في الهدف » قد اعتمدت عند « أبي عبيدة » على المعطيات التالية :

١ – **التقدير الصحيح للموقف** ؛ ومعرفة نوايا العدو بدقة تامة ؛ واجراء موازنة محكمة بين مجموعة العوامل التي تدخل في اتخاذ القرار .

٢ – **عقد مؤتمرات القادة** – بحسب التعبير الحديث – واستشارتهم في المواقف المستجدة بعد طرح الموقف بكل أبعاده ؛ ثم اتخاذ القرار المناسب والعمل على تنفيذه .

٣ – **الفصل بين « الهدف الاستراتيجي » و « الهدف العملياتي »** ومعالجة (مواقف العمليات) بصورة مباشرة . وترك المواقف الاستراتيجية للقائد الاستراتيجي – والذي كان يمارس دوره الخليفة .

وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن إعطاء الافضليات عند تعادل أهمية الاهداف هو من اختصــاص القيادة الاستراتيجية . على نحو ما كان عليه الموقف في « دمشق ؛ وفحل » . كما أن هجوم الروم عام ١٧ ﻫ كان هجوماً عاماً له طابع استراتيجي ؛ وقد برهنت مسيرة الاحداث أن معالجة هذا الموقف على مستوى السياسة الاستراتيجية هو الذي حقق ذلك النجاح الرائع للعملية بمجموعها .

هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى . فعندما شعر « أبو عبيدة » بتحول الموقف ؛ لم ينتظر وصول أي تعليمات أو قوات دعم وانما عالجه على مستوى العمليات فقام بتنظيم الهجوم ونجح في تدمير قوات الروم ؛ والقضاء عليها ومطاردتها

حتى حدود بلادها . وبعد فقد يكون « وضوح الهدف» قاسماً مشتركاً بين عدد غير محدود من القادة الناجحين ؛ من مسلمين وغير مسلمين ؛ ولكن « وضوح الهدف » في كثير من الاحيان – وبصورة خاصة في العصر الحديث – انما يرتبط بمجموعة من العوامل المحددة باطارين « زمني ومكاني » في حين كان مثل هذا الوضوح عند قادة العرب المسلمين خاصة غير محدد لا بالحدود الزمنية ولا بالحدود المكانية ؛ ولعل « غزوة الخندق » أفضل مثال على ذلك ؛ فقد وقف الرسول ﷺ ومن ورائه المسلمون ؛ يحفرون الأرض ، والاعداء محيطون بهم من كل جانب ؛ والخطر يتهدد وجودهم ؛ وهم قلة ؛ وفي هذا الموقف ، ضرب رسول الله الصخرة فأضاءت له الدنيا ورأى على وهجها « قصور كسرى وحصون الروم وقد أصبحت في قبضة المسلمين » وسخر أعداء المسلمين لمثل هذه التصورات للمستقبل والمسلمون على ما هم عليه من الضنك والضيق . ولم يمض على ذلك سوى عشر وبضع سنين حتى تحققت النبوءة . وكذلك الأمر ؛ ولو على نطاق محدود بالنسبة « لأبي عبيدة » وسواه من قادة المسلمين ، الذين كانوا ينظرون إلى هدف المستقبل الواضح من خلال مواقفهم المرحلية ؛ فكان عملهم في ذلك منهجياً ومبرمجاً ؛ في إطار أهداف مرحلية وصغيرة تنتهي عند « هدف الحرب » الذي يمهد بدوره لتحقيق « غاية السلم » و « بناء المجتمع الاسلامي » .

لقد كان « وضوح الهدف » عند « أبي عبيدة بن الجراح »

هو الذي ضمن له عدم الانزلاق نحو أهداف ثانوية ؛ أو الوقوع في مأزق من مآزق الحرب المتوقعة دائماً ؛ أو حتى التعرض لمباغتة من مباغتات الحرب . ولم ينكب المسلمون تحت قيادته ؛ ولم تنتكس لهم راية ؛ فقد كانت أمور الفتح تسير بدقة وإحكام ؛ وقد يكون من غير الطبيعي النظر إلى مسيرة الفتوح في بلاد الشام من خلال منظور « حرب الحركة الحديثة » أو اجراء التقويم على أسس المعرفة الحديثة للأبعاد الزمنية والمكانية لمسارح العمليات . وعلى هذا الاساس ، ومع الأخذ بهذه المعطيات ؛ تظهر أهمية عامل « وضوح الهدف » عند رائد الفتح « أبي عبيدة بن الجراح » وتتعاظم أهمية هذا العامل أيضاً عند استعراض ما كان عليه موقف جيش العرب المسلمين ؛ فقد قاد « أبو عبيدة » جيشاً قليل الخبرة بالحرب ؛ قليل الخبرة بالأمور التنظيمية ضعيف الامكانات بالقوى والوسائط ، وكان لا بد لهذا الجيش من مجابهة جيش عريق في تنظيمه ؛ غني بخبراته وتجاربه ؛ متفوق بقواه ووسائطه وعلاوة على ذلك فقد كان هذا الجيش — جيش الروم — على علاقة وطيدة بسكان البلاد بحيث لم يكن يخشى على مؤخرته ، كما كانت معرفته بمسرح العمليات جيدة وكاملة . وأمام هذه الفوارق ظهرت مجموعة من العوامل لصالح العرب المسلمين ولم يكن « وضوح الهدف » أقل هذه العوامل على كل حال ؛ كما لم يكن أقلها أيضاً كفاءة « أبو عبيدة » القيادية .

وتظهر مسيرة الفتوح بعد ذلك ؛ أنها لم تكن ضربة مباغتة

في غفلة من الدهر ؛ أو أنها كانت عملاً مرتجلاً بعيداً عن الهدف ؛ مجرداً من الغاية ؛ وانما كانت عملاً موجهاً بدقة رائعة ، مارس فيها عقل « أبو عبيدة » الجبار دوراً أساسياً على مستوى التخطيط للعمليات ، وعلى مستوى تحديد الهدف الأساسي والاهداف الثانوية أو الفرعية ؛ وقد تم تنفيذ ذلك كله في اطار من الوضوح التام ؛ مما ساعد القوات على الاضطلاع بواجباتها وتنفيذ عملياتها دون خطأ ، ودون اضطراب ، وفي مناخ من الثقة الكاملة بالنصر .

٤ – الحرص على العنصر العربي – دعامة الاسلام :

وصف رسول الله ﷺ « أبي عبيدة » « **بأمين الأمة** » ولا حاجة للقول إن الأمانة تشمل الحرص على أرواح المسلمين قبل كل شيء . وقد برهن « أبو عبيدة » في حياته كلها عن حرصه الشديد على أرواح المسلمين ؛ فكان لا يقتحم المخاطرة غير المحسوبة ؛ ولا يرسل سرية الا وهو على ثقة من قدرتها على تنفيذ هذا الواجب ، وكان « مكيناً في الحرب غير متسرع ولا متهور » مما كان يدفع المتسرعين إلى اتهامه بالتردد ؛ حتى قال أحد المسلمين أثناء حصار دمشق مقولة استعجز فيها « أبي عبيدة » ورجح « خالد بن الوليد » مما أغضب « معاذ ابن جبل » الصحابي المشهور ودفعه إلى القول : (**أبأبي عبيدة**

يُظن ؟! والله إنه لمن خير من يمشي على الأرض) [1] وتكرر طرح مثل هذه المقولة أثناء حصار « حمص » فقال قائل : (لو كان خالد بن الوليد ؛ ما كان البأس ذو كون) فتصدى « معاذ بن جبل » [2] مرة أخرى للموقف وقال : (فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة ؟! لا أبا لك ؟! والله إنه لمن خير من على الأرض) [3] وتظهر سيرة « أبا عبيدة » أنه كان يتوقف أمام كل موقف غير متوقع ؛ ويتخذ الاجراءات الضرورية « لتطويق الموقف » ثم ينتظر التطورات الممكنة أو المحتملة ويضع مخططاً محكماً ودقيقاً « للعمل العسكري » ثم يقوم

---

(١) و (٣) الاصابة ٤/١٢ و ١٣ و ٦/١٠٦ .

(٢) معاذ بن جبل (الأنصاري الخزرجي) صحابي ؛ وهو أحد السبعة الذين شهدوا العقبة من الانصار ، وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين الصحابي عبد الله بن مسعود ؛ اشترك في معركة « بدر الكبرى » وفي معارك الرسول وغزواته كلها ؛ وبعثه الرسول قاضياً إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الاسلام ويقضي بينهم ؛ وجعل اليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن . وقال فيه الرسول : (معاذ ، أعلم — الناس — بالحلال والحرام) وقال : (يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء) واشترك « معاذ » بعد ذلك في اليرموك وفتوح الشام ؛ وتوفي بناحية الاردن في طاعون « عمواس » وعمره ٣٨ عاماً (٢٠ ق . هـ — ١٨ هـ = ٦٠٢ — ٦٣٩ م) الاستيعاب ٣/١٤٠٢ وأسد الغابة ٤/٣٧٦ وطبقات ابن سعد ٣/٥٨٣ و ٧/٣٨٧ .

بالتنفيذ وقد ضمن أفضل الشروط لتحقيق النصر مع تحمل الحد الادنى من الخسارة في القدرة البشرية . وواضح أن سياسة « الانتظار الطويل » عند « أبي عبيدة » لم تكن ضعفاً ؛ ولا ترددا ؛ ولا نوعاً من القصور أو التقصير ؛ وإنما كانت شجاعة يسيطر عليها العقل والتفكير وحزماً يهيمن عليه الحذر واليقظة ؛ واقداماً بعيداً عن مزالق التهور ؛ ولم يكن ذلك كله إلا من أجل مصلحة المسلمين ؛ فقد كان « أبو عبيدة » منكراً لذاته ؛ مقبلاً على ما أقبل المسلمون عليه ؛ راضياً بقضاء ربه وقدره ؛ حتى أنه عزف عن مغادرة منطقة الوباء « في طاعون عمواس » ورفض دعوة أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنه وفضل البقاء مع جنده ومقاسمتهم نصيبهم في الوباء فكان يردد (اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة) فأصابه ما أصاب المسلمين ، ومضى مع من مضى راضياً بقضاء ربه وقدره ؛ ومن المحال تفسير « الانتظار الطويل » عند « أبي عبيدة » بغير « الحرص على العنصر العربي – دعامة الاسلام » .

كان « أبو عبيدة » مسلماً عميق الايمان حفظ قوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ من أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيه ماعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ)(١) وكان « أبو عبيدة » صحابياً عرف عن الرسول حرصه على العنصر العربي – دعامة الاسلام . ثم كان بعد ذلك قائداً من رواد الفتح وعرف

---

(١) سورة التوبة ١٢٨ .

« حجم التحديات الكبرى » التي تجابه قوات « العرب المسلمين »
ومن هنا كان حرصه الدائم على « العرب المسلمين » الذين
يقع على عاتقهم حمل رسالة الاسلام ؛ وتعريف الدنيا بها .
يمكن بعد ذلك العودة إلى أساليب « أبي عبيدة » وطرائقه في
قيادة العمليات ؛ حيث كانت هذه الاساليب والطرائق كلها
تلتقي عند نقطة أساسية هي الحرص على المسلمين ؛ وعلى
الرغم من أنه من المحال تحديد نتيجة واحدة لعمل واحد :
إلا أن كثيراً من الاعمال كانت تحقق هذا المبدأ فيما كانت
تحققه من نتائج ، وقد كانت نصوص الاتفاقيات المعقودة
مع أهل « الشام » تشترط وقبل كل شيء « حماية المسلم
ومساعدته والحرص على عزته وكرامته » فكان الحرص على
المسلمين يشمل (الدفاع المادي عن المسلم والدفاع المعنوي) .
ويأتي تطبيق مبادىء الحرب ضمن هذا الاطار ذاته ؛ فكان
« التأمين الاداري للقوات » من شأنه تأمين متطلبات الجيش
المادية ؛ والمحافظة على روحه المعنوية . وكذلك الأمر بالنسبة
لتطبيق مبدأ (المباغتة) أو (المبادأة) حيث كانت النتيجة
تنتهي بتحقيق (هدف الحرب) مع تكبد الحد الأدنى من
الخسائر في « القدرة البشرية » . ويمكن التساؤل عما كان
سينتهي اليه الموقف لو تم العمل على اقتحام دمشق قبل اقناع
« أهل دمشق » (بعدم جدوى مقاومتهم بعد الحصار الطويل) ؟
وما هي الخسائر التي كان يحتمل وقوعها لو تم الهجوم على
« حمص » من الحركة ؛ ودون حصارها طويلاً واقناع أهلها

بعدم جدوى مقاومتهم ؟ كما يمكن التساؤل عن حجم الخسائر التي كان يحتمل تكبدها لولا مباغتة « اللاذقية » أو عند مجابهة « هجوم الروم وأنصارهم على حمص » في عام ١٧ هـ ؟ . لقد كان هناك احتمال في انتصار المسلمين ؛ ولكن الاحتمال الأرجح هو دفع ثمن باهظ يزيد كثيراً على أهمية النصر الذي كان يحتمل تحقيقه .

وتبقى عملية التوازن بين تحقيق الهدف ؛ وبين الثمن المقابل لتحقيق هذا الهدف هي في طليعة المميزات التي انفردت بها قيادة « أبي عبيدة بن الجراح » في عمليات « فتوح الشام » وبالاضافة إلى ذلك ، فقد كان على المسلمين إقامة المجتمع الجديد ؛ وكان من غير الطبيعي استنزاف قوة المسلمين في تحقيق « الهدف العسكري » والوقوف موقف العجز أمام متطلبات بناء المجتمع الجديد وضمان الاستقرار فيه . وعلى هذا فقد كان تحقيق « الهدف العسكري » مجرد وسيلة ؛ وكان استخدام هذه الوسيلة يتطلب « تقنياً دقيقاً » لا يستنزف القدرة البشرية للمسلمين أو يضعفها إلى درجة تجعلها عاجزة عن تحقيق « غاية السلم » .

وكان « أبو عبيدة » وهو يقود جند المسلمين يعرف أنه لن يجابه معركة حاسمة واحدة ؛ وإنما كانت أمامه وأمام قواته مجموعة غير محدودة من المقاومات تتضمن أعمال حصار ؛ ومعارك جبهية تصادمية ؛ واشتباكات كثيرة ؛ وحروب

استنزاف ؛ وكان يعرف قبل كل شيء أن مسيرة الجهاد طويلة وشاقة بسبب تفوق أعداء المسلمين بالقوى والوسائط ؛ فكان من المحال زج كل القوات في معركة حاسمة وغير « مقننة » لتحقيق نصر يجعل من المحال متابعة الصراع بعده . فكان « الحرص عل العنصر العربي » متلاحماً بمبدأ « الاقتصاد بالقوى » وبمبدأ « المحافظة على الهدف » ومبدأ « حماية المرؤوسين » وتظهر هنا — كما تظهر في كل مكان — قضية التكامل الرائع في « عقيدة القتال » عند العرب المسلمين .

ويحرص كل قائد على جمع أكاليل النصر في الحرب ؛ وينطلق من حرصه هذا إلى المعركة في محاولة لتحقيق النصر بثمن معقول وبتضحية مقبولة ؛ ويحالف الحظ بعض القادة في حين يجافيهم في أحيان أخرى ؛ ولكنهم قلة أولئك الذين يحالفهم الحظ فيحققون انتصاراتهم دائماً لقاء ثمن محدود من الخسائر ؛ وقد كان قادة العرب المسلمين بصورة عامة — و « أبو عبيدة بن الجراح » منهم بصورة خاصة — من تلك الفئة القليلة التي كان النصر حليفها دائما . ولم تكن قضية « الانتصار الرائع بالثمن المعقول » هي قضية حظ بالنسبة « لأبي عبيدة » بقدر ما كانت قضية كفاءة قيادية عالية ، وبقدر ما كانت قضية تخطيط دقيق وخيال مبدع يستنفر امكانات العقل كلها للوصول إلى « الهدف » في الوقت المناسب ومن خلال المكان المناسب .

٥ ــ استراتيجية الحرب التشتيتية :

كانت حروب العرب المسلمين نوعاً من الحروب الثورية ــ بمفهومها الحديث ــ ويظهر أن طبيعة تلك الحروب قد ساعدت قادة العرب المسلمين على استخدام الاساليب الثورية المناسبة ؛ للتكيف مع طبيعة الحرب ؛ وضمان الاستجابة المناسبة في مجابهة التحدي المناسب ؛ واستخدمت استراتيجية الحرب التشتيتية ــ وهي استراتيجية ثورية بالدرجة الاولى ــ لمجابهة تفوق الروم ؛ ولم تكن هذه الاستراتيجية هي الوحيدة التي استخدمها قادة العرب المسلمين للمعاوضة عن نقاط الضعف لديهم ؛ ولكنها بقيت من أبرز الاستراتيجيات المستخدمة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تميزت حروب العرب المسلمين بمجموعة من الخصائص التي وضعت تلك الحروب نموذجاً متقدماً من « حرب الحركة » ومن طبيعة هذه الحرب عدم الجمود أمام موقف معين ؛ والابتعاد عن « معارك المواقع الثابتة والتحصينات » ، والسعي لمقابلة قوات العدو في معارك تصادمية يغلب عليها طابع الهجوم من الحركة مع عدم استعداد مسبق أو مع استعداد يتم تحضيره على عجل ؛ ويشترط هذا النوع من الحرب كفاءة قيادية عالية على مستوى العمليات وادارة الحرب كما يتطلب كفاءة عالية من المقاتلين لتنفيذ الاساليب التعبوية « التكتيكية » المناسبة . وتبرز سيرة « أبي عبيدة بن الجراح » وعمليات فتح الشام مجموعة من الاساليب

والطرائق التي استخدمت لتطبيق استراتيجية « الحرب التشتيتية » بنجاح وفاعلية ؛ ومنها :

١ – التحرك على عدد من المحاور المتوازية أو المتلاقية ؛ كالتحرك من قاعدة الحشد في المدينة المنورة والانطلاق إلى الشام نحو أهداف عديدة ؛ مما أربك الروم ؛ وحملهم على وضع خطة لمجابهة الجيوش الاربعة ؛ وعادت هذه الجيوش للتجمع مما أرغم قيادة الروم على تبديل مخططاتها مرة أخرى لمجابهة الموقف الجديد ؛ وغنمت جيوش المسلمين من ذلك مكسب فرض المعركة على العدو في الزمن والمكان المناسبين .

٢ – التحرك على شكل مجموعات قتالية متتالية – على نحو ما حدث في موقعة « مرج الروم » والقضاء على قوات العدو بتجزئتها ؛ والقضاء على كل مجموعة بشكل منفصل عن الأخرى ؛ وحرمانها من تنسيق التعاون فيما بينها . وظهرت ميزة هـذه الاستراتيجية أيضاً عنـد حصار « دمشق » حيث قامت مجموعة فرسان « ذا الكلاع الحميري » باحباط كل محاولة لدعم حامية « دمشق » وحرمان قوات الروم من تنسيق التعاون فيما بينها .

٣ – يمكن اعتبار « احباط هجوم الروم ضد حمص » في عام ١٧ هـ ، نموذجاً رائعاً لأساليب الحرب التشتيتية ففي هذه المعركة ؛ توجهت قوات المسلمين من مراكز بعيدة عن مسرح العمليات (الكوفة) وانطلقت إلى منطقة غير منطقة

العمليات التي أرادها العدو ، فكان تحرك قوات الكوفة إلى « الجزيرة » عاملاً حاسماً أرغم عرب الجزيرة على « التخلي عن دعم الروم » والعودة إلى مراكز قوتهم في الجزيرة للدفاع عنها ؛ وخسر الروم بذلك الدعم الذي كانوا ينتظرونه ويتوقعونه ؛ وبذلك أمكن القضاء على كل قوة بمعزل عن القوى الاخرى ؛ فعمل « أبو عبيدة » ومعه « جيش حمص » على تدمير جيش الروم في حين اضطلع جيش العراق بأعمال اخضاع الجزيرة وفتحها ؛ وحققت « استراتيجية الحرب التشتيتية » أهدافها .

٤ ـ دفع « أبو عبيدة » مجموعات قتالية أثناء فتح دمشق نحو اتجاهات مختلفة لاخضاع المنطقة المحيطة « بدمشق » وفعل مثل ذلك أثناء حصار « دمشق » حيث قاد « خالد بن الوليد » احدى المجموعات ووصل بها حتى « قنسرين » و « حاضر حلب » علاوة على تلك المجموعات التي كانت تتحرك باستمرار في « ريف حمص » . وقد كان تنفيذ مثل هذه العمليات يشكل عبئاً ثقيلا على عاتق المسلمين ؛ بسبب ضعفهم العددي ؛ ولكن مقابل ذلك حرص المسلمون على رصيد معنوي ضخم ؛ أضيف إلى رصيدهم الأصلي ؛ وأدى ذلك أيضاً إلى احباط ارادة القتال عند الطرف المقابل الذي بات يخشى جيش المسلمين الضخم وشدة بأسه ، وضمنت العمليات التشتيتية ـ علاوة على ذلك ـ أمن كتلة القوات الرئيسية ،

ووفرت لها ظروف العمل المناسبة بعيداً عن كل خطر من تهديد « المباغتة » . ويظهر بوضوح أن « استراتيجية الحرب التشتيتية » قد ساعدت على تحقيق عدد من مبادىء الحرب في وقت واحد .

٥ ـ يمكن أيضاً اعتبار أسلوب المطاردة لتدمير قوات العدو أثناء انسحابها نوعاً من الحرب التشتيتية ، فقد عمل « أبو عبيدة » بعد معركة « حمص » على توجيه مجموعات قتالية متتالية لمطاردة الروم حتّى ما وراء الدروب . وتحركت هذه القوات على محاور متباعدة ؛ وهذا ما دفع « أبي عبيدة » لتكوين مجموعات قتالية أخرى تسير على أثر المجموعات المتقدمة لها بهدف دعمها ان هي جابهت مقاومة قوية ؛ أو اصطدمت بمعارك غير متوقعة مع قوات للعدو متفوقة .

لقد استخدم بعض القادة العالميين « استراتيجية الحرب التشتيتية » في القرن الثامن عشر ؛ [١] للمطاردة كما استخدم

---

(١) استخدم هذه الاستراتيجية القائد الروسي كوتوزوف Koutouzov (١٧٤٥ ـ ١٨١٣ م) أثناء مطاردة جيوش نابليون بعد انسحابه من موسكو ، وخلال مرحلة تراجعه نحو فرنسا . كما تستخدم استراتيجية « الحرب التشتيتية » بصورة خاصة في الحروب الثورية كوسيلة للتعادل مع قوى العدو المتفوقة وهدفها الاول « ضرب العدو ضربات موجعة » مع المحافظة على قوات الثورة ــ وكانت هذه الاستراتيجية احدى وسائل « الحرب الجزائرية ضد فرنسا » (١٩٥٦ ـ ١٩٦٣)=

قادة آخرون العمل على أكثر من محور ؛ ولكن قادة العرب المسلمين – وفي طليعتهم « أبو عبيدة بن الجراح » هم أول من استخدم هذه الاستراتيجية في الهجوم والدفاع وحتى أثناء حرب الحصار والمواقع ولعلهم أيضاً في مقدمة من استخدم هذه الاستراتيجية في اطار التكامل مع « العقيدة القتالية » بحيث كانت هذه الاستراتيجية وجهاً من وجوه عقيدتهم الغنية بالمبادىء والاسس .

ولعل الظاهرة الأكثر أهمية هي استخدام هذه الاستراتيجية على مستوى السياسة – الاستراتيجية للفتح واستخدامها أيضاً على مستوى العمليات ، فقد كان توجيه جيوش الفتح إلى الشام ، وتحديد عدد من المحاور لتحركها انما هو من عمل الخليفة « أبو بكر » رضي الله عنه ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لاحباط هجوم الروم ؛ وتوجيه القوات لفتح « الجزيرة » بحسب المخطط الذي وضعه أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنه ؛ وفي النموذجين المذكورين تم تخطيط « الحرب التشتيتية » على مستوى السياسة – الاستراتيجية ؛ في حين كان توجيه المجموعات القتالية أثناء حصار « دمشق » وأثناء حصار « حمص » وأثناء مطاردة قوات الروم بعد المعارك وتوجيه القوات إلى ما وراء الدروب ، كل ذلك في اطار « العمليات »

= والتي أرغمت قوات فرنسا في كثير من الاحيان لتوجيه ضرباتها نحو الفراغ .

ومن تخطيط قائد مسرح العمليات « أبو عبيدة بن الجراح » .
ويمكن اعتبار نجاح عمليات فتح الشام في قسم كبير منها ؛ نتيجة للسياسة ــ الاستراتيجية التي كان يطبقها « أمير المؤمنين » .
كما يمكن اسناد قسم من النجاح للكفاءة العالية التي كان عليها جند المسلمين ؛ ولكن ذلك كله لا ينتقص من كفاءة « أبو عبيدة » كقائد للعمليات ؛ ولعل أكبر نجاح له هو في التنسيق بين أسس السياسة ــ الاستراتيجية وبين ادارة الحرب على مستوى العمليات ؛ والتوفيق باستمرار بين « الهدف » وبين « القوى والوسائط المتوفرة » .

٦ ــ استراتيجية الهجمات الوقائية :

وضع « أبو عبيدة بن الجراح » قاعدة « استراتيجية الهجمات الوقائية » عندما نظم غزوات ما وراء الدروب لاشغال الروم عن أنفسهم وذلك بعد قيامهم بالهجوم ضد « حمص » . وقد تحولت هذه الغزوات فيما بعد ؛ فأصبحت رتيبة ودورية ومنتظمة ؛ وبقي الهدف ثابتاً وهو « عدم السماح للروم بتهديد أمن الثغور الاسلامية » ولقد تطور مفهوم « استراتيجية الهجمات الوقائية » تطوراً كبيراً ؛ ولكن بقي الأساس الذي أرسى قاعدته « أبو عبيدة » وهو :

١ ــ تنظيم الثغور ؛ واقامة حاميات قوية على الحدود ؛ واجبها الأول تلقي الصدمة عند حدوث هجمات مباغتة ؛

وانذار قيادة جيش المسلمين ؛ وتوفير الفرصة المناسبة أمام الجيش للدخول في المعركة .

٢ – قيام حملات قوية ومنتظمة لغزو بلاد الروم ، ونقل « ويلات الحرب » إلى بلاد الروم ؛ وابعادها عن بلاد المسلمين . وكانت حاميات الثغور تنضم إلى هذه الحملات ، ثم تعود إلى قواعدها مع عودة الحملات – في الصوائف والشواتي –) .

لم تكن « استراتيجية الهجمات الوقائية » في واقعها بعيدة عن العقيدة القتالية للمسلمين ؛ وقد مارس الرسول ﷺ تطبيق هذه الاستراتيجية في حروبه حيث كان ينتقل إلى مواقع أعدائه ؛ أو يسير اليهم قبل أن يصلوا اليه ؛ وقبل أن يهاجموه في قاعدته ؛ وطبق الخليفة الأول هذه الاستراتيجية ذاتها ضد المرتدين ، فهاجمهم في قاعدتهم ؛ وحرمهم من تنسيق التعاون فيما بينهم ؛ وعندما تم فتح الشام ؛ أخذت هذه الاستراتيجية ملامح متطورة في مجال التطبيق العملي وفي مجال قيادة العمليات ؛ ويعود الفضل إلى « أبي عبيدة » في احداث هذه التطورات التي أصبحت أساساً لكل تطوير لاحق .

وتجد استراتيجية الهجمات الوقائية قاعدة لها في عقيدة قتال المسلمين ؛ فحروب المسلمين « حرب حركة » قبل كل شيء ؛ وهي « حرب هجومية » ورغم أن « اشغال الروم عن أنفسهم » هو عمل دفاعي هدفه صرفهم عن التعرض

للمسلمين ؛ إلا أن العقيدة القتالية الاسلامية قد جعلت « الحرب الهجومية » وسيلتها لتحقيق « الهدف الدفاعي » وجاءت استراتيجية الهجمات الوقائية ترجمة واقعية وعملية لهذا المضمون . لقد كان من المحال على « أبي عبيدة » تجميد قوات كبيرة للبقاء في الثغور « كحاميات دفاعية في مواقع ثابتة » كما أن مثل هذا الاجراء يتنافى وعقيدة القتال الاسلامية — الهجومية — وكان من المحال أيضاً منح الثقة لاعداء المسلمين والاعتماد على « نواياهم السلمية » لو ظهرت مثل هذه النوايا ؛ وكان المخرج الوحيد هو « تنظيم حرب هجومية » بصورة دائمة ؛ ولكن كان من المحال أيضاً البقاء في مواقع الهجوم على جبهة واحدة ، في حين كانت الاعمال القتالية الناجحة على الجبهات الاخرى تتطلب تركيز الجهد لتعزيز تلك النجاحات دائماً ؛ ولم يبق من مخرج إلا التناوب بين الهجوم والدفاع على جبهة الروم بقدر ما يتوفر من « القوى والوسائط » ؛ ونجحت « استراتيجية الهجمات الوقائية » في ايجاد المخرج من هذا المأزق على حدود بلاد المسلمين مع « الروم » . وتظهر عبقرية « أبا عبيدة » القيادية مرة اخرى من خلال التوفيق بين « الهدف » وبين « القوى والوسائط المتوفرة » وقد يكون من الطبيعي لقائد أن يكلل هاماته بأكاليل الغار عندما يتصرف بقوى كبيرة وبوسائط جبارة لتحقيق « هدف محدود » . ولكن الكفاءة القيادية الحقيقية — بالنسبة لقائد العمليات هي في « تحقيق الهدف » بالقوى والوسائط

المتوافرة ، ويتعاظم دور الكفاءة القيادية عندما تكون تلك القوى والوسائط هي أقل بكثير من حجم الواجبات المفروضة على قائد العمليات . ويعرف « تاريخ الحرب » مجموعات كبيرة من القادة الذين حققوا نجاحاتهم الرائعة بفضل ما توفر لهم من قوى ووسائط ؛ ولكنهم قلة أولئك الذين بلغوا أهدافهم بوسائط وقوى محدودة ؛ وكان « أبو عبيدة » واحداً من قادة التاريخ الذين كانت انتصاراتهم أكبر بكثير من حجم قواهم ووسائطهم .



ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المباغتة :

يظهر مبدأ « المباغتة » في طليعة المبادىء التي اعتمدها « أبو عبيدة » في حروبه ضد الروم « البيزنطيين » فقد نظم « مناورة خداعية » وتظاهر بالانسحاب من « حمص » وسمح للروم بمطاردته ؛ وقدم لهم « الغنائم » كطعم لاجتذابهم واخراجهم من حصونهم ؛ ثم باغتهم بالانقضاض وحقق بذلك المباغتة على مستوى العمليات . ثم قام « بمناورة خداعية » مماثلة عندما امتنعت عليه مدينة « اللاذقية » ولكنه طور الاسلوب إذ لجأ إلى اقامة الحفر للفرسان وخيولهم بهدف اخفائها وتمويهها بسبب طبيعة المنطقة المكشوفة حول المدينة والتي لا تساعد القوات على الاقتراب دون أن تنذر حامية المدينة ؛ وبذلك نجح مرة أخرى بتحقيق « المباغتة » على مستوى العمليات . وأثناء فتح « دمشق » كانت هناك مفاوضات استمرت طويلاً دون الوصول إلى نتيجة بشأن الاستسلام ؛ وقام « خالد بن الوليد » باقتحام الأسوار من منطقة « باب

شرقي » فأمكن حسم الصراع المسلح عن طريق المباغتة حيث ظهرت قوات المسلمين في زمن غير متوقع وفي مكان غير متوقع فكانت نتيجة المباغتة مذهلة تداعت لها قوات « دمشق » وألقت السلاح مسلمة القياد لقوات المسلمين المنتصرة . ولم تكن هذه هي كل ظواهر « المباغتة » فقد كان ظهور المسلمين ؛ بقوتهم الجديدة ؛ وتنظيمهم الحديث ؛ وكفاءتهم العالية في إدارة الحرب ؛ وتصميمهم الصلب على بلوغ أهدافهم ؛ كل ذلك ؛ مما أذهل الروم وأضعف ارادتهم للقتال بداية من اليرموك ونهاية بانطاكية والثغور القائمة أمام الدروب « درب انطاكية ودرب الجزيرة » وكان « لأبي عبيدة » دور كبير في هذه « المباغتات » . ولكن ؛ ومع أهمية « المباغتة على مستوى العمليات » فقد كان هناك نوع من « المباغتة الاستراتيجية » التي كان يصممها أمير المؤمنين؛ ولم يكن تحرك « خالد بن الوليد » إلى الشام وظهوره خلف قوات الروم الا « مباغتة استراتيجية » وكذلك الأمر بالنسبة لتحرك القوات من « الكوفة » إلى « الجزيرة » لاحباط هجوم الروم ضد « حمص » حيث كان وقع « المباغتة الاستراتيجية » مذهلاً بحيث أدى إلى نجاح « استراتيجية الهجوم غير المباشر » فلم تحاول قوات الجزيرة تنظيم مقاومة قوية لمجابهة تقدم المسلمين . ويمكن متابعة ظواهر المباغتة أيضاً على المستوى التعبوي « التكتيكي » حيث كانت قوات المسلمين تندفع إلى كل مكان وتسير إلى كل اتجاه ؛ فكان ظهورها « المباغت » وتدميرها المستمر لقوات العدو ؛ كافياً لاستنزاف قوة الروم المادية واحباط روحهم المعنوية

والوصول إلى الهدف المباشر بوسائط « استراتيجية الهجوم غير المباشر » . ولم تكن « القناعة » التي كونها الروم عن حتمية انتصار العرب المسلمين سوى نتيجة لنجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر ؛ والتي مارس فيها « مبدأ المباغتة » دوراً أساسياً وحاسماً .

ويظهر وبوضوح تام أن « أبا عبيدة » لم يعتمد على مبدأ واحد من مبادىء الحرب في حروبه ، وانه لم يستخدم استراتيجية ثابتة لتحقيق النجاح في عملياته ؛ فكان يختار من الأسس ما هو ضروري لمجابهة المواقف المستجدة ؛ وكان يختار من مبادىء الحرب ما هو مناسب لحل مشكلات المواقف المستحدثة . وبذلك اكتسبت الاسس والمبادىء قدراً كبيراً من المرونة ؛ وبذلك أيضاً ظهزت الاسس والمبادىء بصورتها المتشابكة والمعقدة بحيث أصبح من الصعب فصل النتائج التي حققها أي مبدأ بمعزل عن المبادىء والاسس الأخرى فكان بذلك التكامل الرائع لفن الحرب عند « العرب المسلمين » واحتل « أبا عبيدة » مكانته الخالدة في طليعة قادة المسلمين الذين طبقوا بكفاءة عالية « مبادىء الحرب » وعملوا على تطويرها وإكسابها المرونة الضرورية ليضمنوا لها شروط البقاء والاستمرار .

كان العرب — يقيناً — على درجة عالية من الكفاءة القتالية ؛ واستطاع قادتهم تحقيق بعض الانتصارات — على نحو ما فعلوه في معركة « ذي قار » عندما باغتوا الفرس بتنظيم جديد وقوة غير متوقعة — وفي « غزوة أحد » قاد « خالد بن

الوليد » سرية من الفرسان وباغت قوات المسلمين بهجوم من الخلف كاد يؤدي إلى تدمير قوة المسلمين ولكن صمود الرسول ﷺ ومعه فئة قليلة ساعد على تحويل الموقف لصالح المسلمين ؛ ويظهر من خلال ذلك أن المباغتة في إطاريها الزماني والمكاني كانت معروفة تماماً للعرب ؛ ولكن العقيدة القتالية الاسلامية أخذت بهذا المبدأ وعملت على تطويره ؛ حيث ظهرت معالم « المباغتة في العمليات » و « المباغتة في المجال الاستراتيجي » ويتوافق هذا التطور في واقعه مع زيادة حجم القوات ومع اتساع مسارح العمليات وهنا تظهر الكفاءة القيادية في التوفيق بين المبدأ وبين متطلبات الواقع ؛ وتعديل النظرية بما تتطلبه الممارسة العملية .

اعتمد العرب المسلمون طرائق « حرب الحركة » وطوروا أساليبها ؛ ويشكل « مبدأ المباغتة » أساساً صلباً لهذه الحرب ؛ فتحرك القوات يفقد كثيراً من أهميته إن لم يحقق « المباغتة » وهذه المباغتة لم تكن هدفاً في حد ذاتها وإنما كانت وسيلة لتحقيق مبادىء أخرى « كالمبادأة » وفي الوقت ذاته تحقيق التعادل الكمي لدى الروم بتعادل نوعي عند العرب المسلمين .

وقد يكون من المحال النظر إلى « مبدأ المباغتة » على نحو ما طبقه « أبو عبيدة بن الجراح » وفقاً لمقاييس زمنية ومكانية مغايرة لتلك التي نفذت الأعمال القتالية في إطارها ومضمونها . ويكون من الصعب نتيجة لذلك تقويم منجزات

« أبي عبيدة » وما حققته من نتائج على مستوى العمليات وعلى مستوى « إدارة الحرب » وقد يظهر للوهلة الاولى أن « تنفيذ المناورة الخداعية » هو عمل رتيب وطبيعي ؛ ولكن عند تصور ما كانت تجابهه قوات المسلمين من صعوبات لا نهاية لها في إعادة التنظيم بعد كل معركة ؛ وفي وضع مخططات متطورة لمجابهة المواقف المستجدة باستمرار ؛ وفي التغلب على الصعوبات الجغرافية لمسرح العمليات ؛ علاوة على الصعوبات الطبيعية والناتجة عن التحرك المستمر لقوات كبيرة لم يمارس قادة العرب من قبل قيادة قوات بمثل حجمها ومثل نوعيتها ؛ كل ذلك يبرز كفاءة « أبي عبيدة » القيادية ؛ ويبرهن على قدرته الابداعية التي تغلبت على كل الصعوبات وساعدت على إيجاد الحلول المناسبة للمواقف المختلفة ؛ وفي مقدمتها وقبل كل شيء التطور في « مبادىء الحرب » . وقد لا يكون تطوير « مبدأ المباغتة » عند « أبي عبيدة » سوى ظاهرة واحدة من ظواهر التطوير المستمر « لفن الحرب » عند العرب المسلمين ؛ وقد لا يكون أيضاً أكثر تلك التطورات أهمية . ولكن اسقاط معقلين كبيرين ؛ والاستيلاء على مدينتين رئيسيتين بتأثير المباغتة وهما « حمص » و « اللاذقية » (علاوة على مباغتة دمشق) انما هو برهان على الأثر الحاسم لمبدأ المباغتة في فتوح الشام ؛ مما أقنع « الروم » بعدم جدوى مقاومتهم ؛ وحملهم على إلقاء السلاح في النهاية .

والحرب بعد ذلك وقبله هي حوار إرادات تنتصر فيها

الارادة الأقوى والأكثر تصميماً على بلوغ الهدف . وكان ايمان « أبو عبيدة » عميقاً ؛ وكان تصميمه لبلوغ الهدف كبيراً ؛ فجاء ابداعه في تطوير « مبادىء الحرب » عظيماً وموازياً لعمق ايمانه وقوة تصميمه ؛ وكان مبدأ « المباغتة » في طليعة المبادىء التي عمل على تطويرها . وبرهنت قوات المسلمين على انها مماثلة لقائدها في ايمانها وفي تصميمها فجاء تنفيذها الرائع للمباغتة بمثل ما خطط لها قائدها وأمكن تحقيق تلك الانتصارات في حوار الارادات .

٢ ـ أمن العمل :

تتعاظم أهمية مبدأ « أمن العمل » بقدر ما يتعاظم خطر مبدأ « المباغتة » والقضية الحاسمة هي توفير المناخ الملائم حتى تضع القيادة مخططاتها وحتى تشرف على تنفيذها دون تدخل من العدو ؛ مع ضمان الشروط المناسبة لتقوم القرات بتنفيذ واجباتها دون تهديد بخطر غير متوقع وفي اطار من « حرية العمل » . وقد تعرضت قوات العرب المسلمين وهي في بداية انطلاقتها إلى الشام بكارثة على مستوى العمليات بسبب القصور في تطبيق مبدأ أمن العمل . وعرف قادة جيوش المسلمين أهمية هذا المبدأ . لا من هذه التجربة فحسب ـ بل من مجموعة المبادىء التي طبقت في مجموعة الحروب التي رافقت ظهور الإسلام ؛ وقرروا تطبيق مبدأ أمن العمل ؛ والعمل على تطويره بهدف عدم التورط أبداً في مأزق تنعكس نتائجه

السلبية على قدرة قوات المسلمين بقدر ما تنعكس على إدارة الحرب وعلى كفاءة القادة .

لقد طبق « أبو عبيدة بن الجراح » مبدأ « أمن العمل » في أعماله القتالية كلها ؛ ومن الممكن تقرير ذلك ببساطة من خلال النتائج التي أمكن الوصول اليها ؛ ومن خلال متابعة مسيرة الاعمال القتالية التي لم ينكب المسلمون خلالها ؛ ولم يتعرضوا لمأزق من مآزق الحرب المعروفة والمتوقعة أبداً ؛ ولكن ذلك قد يفرض بالضرورة ابراز الاجراءات التي اتخذها « أبو عبيدة » خاصة في مجال تطبيق مبادىء « أمن العمل » . وقد كانت تلك الاجراءات كثيرة ومتنوعة بحسب الموقف من العدو ؛ وبحسب وضع قوات المسلمين (التوقف ؛ التحرك ؛ أثناء المعركة ؛ بعد المعركة ؛ الخ ...) ويمكن بصورة عامة إيجاز التدابير الوقائية التي اتخذت بما يلي :

١ ــ الاستطلاع المستمر للعدو :

(بحيث لم يكن يخفى على المسلمين شيء من أمور عدوهم) وكانت وسائط الاستطلاع كثيرة ومتنوعة (كالجواسيس أو « العيون » ودوريات الاستطلاع واستجواب الأسرى ومعلومات الأنصار) وكان يتم تنسيق التعاون لتبادل المعلومات بين القيادات سواء فيما بين القيادات المتوازية أو بين الانساق المتتالية بداية من نسق المقاتلين وحتى أمير المؤمنين .

٢ ـ اتخاذ تدابير الحيطة :

(وكان المسلمون لا يبيتون ولا يصبحون الا على تعبية) ولقد حاول الروم مباغتة قوات المسلمين في مرات كثيرة ؛ سواء أثناء فتح « دمشق » أو أثناء معركة « فحل » أو في معركة « مرج الروم » أو أثناء حصار « حمص » ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ المسلمين على حين غرة ؛ إذ كانت عناصر الرصد والانذار ودوريات الاستطلاع المعتمدة على الفرسان «الخيالة» بصورة أساسية، تمارس عملها بصورة دائمة؛ وتضاعف من يقظتها في الليل والاحوال الجوية السيئة ، وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك قوة جاهزة للتدخل باستمرار يطلق عليها اسم « الردء » واجبها مجابهة قوات العدو والاشتباك معها ريثما تتمكن كتلة القوات الرئيسية من الاستعداد ودخول المعركة بطريقة منظمة . ويظهر بشكل واضح أن تدابير الحيطة كانت متكاملة في مستوياتها شاملة في تنظيمها ؛ لا تترك ثغرة يمكن للعدو الافادة منها ؛ وبذلك أمكن احباط كل مباغتة استهدفت « غرة المسلمين » .

٣ ـ عزل ميدان المعركة عن كل تدخل خارجي :

وذلك عن طريق مفارز من الفرسان « قوات متحركة » إلى كل النقاط التي يمكن للعدو التسلل منها أو تهديد المسلمين من خلالها ؛ وكان عمق مجال الحيطة مرتبط بخطورة التهديد المحتمل ، وحجم قوة الحماية وطبيعة منطقة العمليات ، وقد كان حجم هذه القوة بقيادة « ذا الكلاع الحميري »

أثناء حصار « دمشق » وبقيادة « خالد بن الوليد » أثناء حصار « حمص » تتراوح بين ٣ آلاف و ٤ آلاف فارس أي أن كتلة الفرسان الرئيسية كانت هي التي تضطلع بواجب عزل مسرح العمليات وحمايته من المباغتة أو كل تدخل غير متوقع .

٤ ــ تضليل قيادة العدو وخداعها :

وذلك باستخدام وسائط كثيرة منها المحافظة على « أمن القيادة » بحيث لا تستطيع وسائط استطلاع العدو من الحصول على المعلومات التي تريدها ؛ أو السماح لها بأخذ المعلومات التي تريد قيادة المسلمين اطلاع قيادة العدو عليها ؛ ويضاف إلى ذلك عدم ترك فاصل زمني كبير بين اتخاذ القرار المناسب والاعداد له وتنفيذه ؛ مما لم يكن يسمح لقيادة الروم باتخاذ الاجراءات المضادة . هذا علاوة على خلق المواقف المستجدة باستمرار وتطوير أعمال القتال بصورة سريعة . مما جعل قيادة الروم عاجزة عن تكوين الفكرة الصحيحة عن الموقف ومجابهته بتدابير مناسبة .

وتظهر متابعة أعمال الفتوح أن قيادة الروم قد وقفت منذ بداية الفتوح وحتى نهايتها وهي عاجزة عن الاستجابة المناسبة لما كان يتخذه « أبو عبيدة » من تدابير ؛ وتظهر قضية الفتوح بكاملها ــ من هذه الناحية ــ قضية قصور في قيادة الروم مقابل تفوق كبير في الكفاءة القيادية لقوات المسلمين .

ولم تتمكن قيادة الروم « رغم خبراتها الطويلة في ممارسة الحروب » من مجابهة الابداع الجديد في مجال « فن الحرب » ذلك أن قيادات العرب المسلمين قد استحدثت سياسة استراتيجية جديدة وطرائق للعمليات متطورة لم يكن لعالم « فن الحرب » عهد بها .

وقد يكون من الطبيعي لقوات تسير إلى الحرب ؛ أن تتخذ تدابير الحيطة الضرورية لضمان أمنها ؛ وقد كانت مثل هذه التدابير معروفة في الواقع ؛ ولم تكن مخافر الرصد والانذار « المسالح » على امتداد حدود العرب مع دولتي الفرس والروم سوى بعض وسائل « أمن العمل » التي نظمتها الدولتان العظميان في عصر الفتوح . كما أنه من الطبيعي لقوات المسلمين أن تنظم أعمال الاستطلاع وهي تسير عبر بلاد كثيرة التنوع في تضاريسها لمجابهة قوات متفوقة ؛ وقد كانت أعمال استطلاع القتال معروفة أيضاً للمسلمين ولخصومهم على حد سواء . وكانت بعض مباديء الحرب معروفة للجيوش العريقة ؛ القديمة التنظيم ؛ المتمرسة بشؤون الحرب . ولكن دمج تدابير الاستطلاع مع تدابير الحيطة ضمن اطار عقيدة قتالية متكاملة تقوم على تطبيقها قيادة على درجة عالية من الكفاءة في ادارة الحرب بالاضافة إلى كفاءة قتالية مماثلة على مستوى التنفيذ ؛ هو الذي أذهل قوات الروم وجعلها عاجزة عن ادارة الحرب ؛ بمثل الكفاءة التي كانت عليها قيادة « أبي عبيدة بن الجراح » وأمكن للتفوق النوعي عند العرب

المسلمين – على مستوى التخطيط والتنفيذ – التغلب على التفوق الكمي بالقوى والوسائط والـــذي كان لصالح الروم .

يظهر مبدأ « أمن العمل » في واقعه كل الخصائص القيادية لأسلوب « أبي عبيدة بن الجراح » فقد كان يركز جهده لتطويق الموقف الذي يجابهه بواسطة تدابير الأمن والاستطلاع ؛ ثم يعمل بهدوء وبعد أن يضمن الحماية لقواته ؛ بوضع مخطط محكم ودقيق لحل « المأزق العسكري » الذي يجب الخروج منه . ويخلق بذلك موقفاً لا يتوقعه العدو ؛ فتنهار إرادة الصراع لديه وينتصر جيش المجاهدين ببذل جهد معقول ومقبول . ولقد كان هذا الاسلوب الحذر والهادىء مصدر ضيق لبعض مقاتلي المسلمين الذين يرغبون بحسم الصراع المسلح من خلال أقصر الطرق ؛ حتى لو كان الثمن في ذلك مرتفعاً . ولعله من غير الضروري البرهان على أن « أبا عبيدة » كان يضع في اعتباره كل العوامل التي تلقي بثقلها في الموقف الذي يجابهه ؛ فمسيرة الفتوح في حد ذاتها تبرهن على هذه الحقيقة ؛ ولكن رغم ذلك يبقى مبدأ « أمن العمل » في طليعة المبادىء التي كان يعتمدها « أبو عبيدة » في حربه ؛ وبذلك ضمن لنفسه النجاح في التخطيط ؛ كما ضمن لجنده الظروف المناسبة لتنفيذ أعمالهم بنجاح . وضمن في الحالات جميعها وقاية المسلمين وحمايتهم من كل « مباغتة » أو« أمر غير متوقع » .

٣ ـ القدرة الحركية :

كانت جيوش العالم القديم تعتمد على « الخيول » بالدرجة الاولى لضمان القدرة الحركية لقواتها المسلحة . وكانت نسبة الفرسان إلى نسبة المشاة متفاوتة ما بين جيش وآخر ؛ وتتراوح بين ١ إلى ٦ مشاة وبين ١ ـ ١٠ مشاة ، وبالاضافة إلى ذلك فقد كانت جيوش الروم تعتمد على العربات التي تجرها الخيول من أجل زيادة قدرتها الحركية ؛ وكانت العربات التي يستخدمها الروم مغايرة لتلك العربات الخفيفة التي استخدمها الفراعنة أو الهكسوس ، وكانت تستخدم كوسائط للرمي ؛ علاوة على استخدامها لنقل الشؤون الادارية ، أما بالنسبة للخيالة فكانت ثقيلة بتسليحها ، ثقيلة بالدروع التي كانت تحميها من الرمي . وكانت بالاضافة إلى ذلك مرغمة على التحرك بسرعة المشاة الثقيلة التي ترافقها . ومقابل ذلك ؛ اعتمد العرب المسلمون بالدرجة الاولى على قوة الفرسان ؛ ثم زادت نسبة الفرسان بعد اليرموك حتى أصبح الجيش بكامله تقريباً من الفرسان ؛ وكان هؤلاء لا يعتمدون على حماية الدروع ؛ ولا يستخدمون الركاب ؛ (ولعل قصة ضرار بن الأزور الذي كان يركب وهو شبه عار من الثياب على فرس لا يكسوه شيء ؛ إنما تمثل نموذج الفارس الخفيف الذي يعتمد على السيف الخفيف في حربه) وعلى الرغم من استخدام الرماح من قبل قوة المشاة إلا أن السيف بقي هو السلاح الاساسي للفارس .

وبذلك تفوق فرسان المسلمين بخفتهم ومرونتهم ؛ وكانت قوة فرسان الروم متفوقة في قدرتها على الصدمة ؛ حيث كان فرسان المسلمين يصطدمون بجدار قوي أثناء هجومهم ؛ ولكن المرونة وسرعة الحركة كانت تساعدهم على الانسحاب بسرعة وإعادة التنظيم وتكوين صدمة جديدة ، وكانت الصدمات المتتابعة والمتلاحقة كافية لاضعاف جدار « فرسان الروم » وإحداث ثغرات قوية فيه ثم دفعه للانهيار . وكانت لحظة انهياره هي اللحظة التي يصفها مؤرخو المسلمين بقولهم « ظهرت بواكير النصر ، أو لاحت تباشير هزيمة أعداء المسلمين » .

كانت قوات الروم تتحرك بكتلتها في نظام محكم ؛ ولكن هذا النظام كان « متيبساً لكثرة تصلبه » وهو نظام غير متمفصل تتحرك فيه قوة الفرسان (ككتلة صدمة واحدة) وتتحرك فيه كتلة المشاة كقوة رمي واحدة ؛ وكان التنسيق بين كتلتي الصدمة والرمي ضعيفاً فكان انهيار قوة الصدمة كافياً لتدمير قوة الرمي واجتياحها . وقد عرف قادة المسلمين منذ معاركهم الاولى نقاط ضعف التنظيم البيزنطي ؛ فركزوا في كل معاركهم على الفصل بين قوة الصدمة وقوة الرمي وتدمير كل قوة بمعزل عن الاخرى ؛ ولم يكن باستطاعة قيادة العرب المسلمين الوصول إلى هذه النتيجة لو لم تكن قوة فرسان المسلمين على درجة عالية من المرونة والقدرة الحركية السريعة . وبالاضافة إلى ذلك كله فقد كان الجيش البيزنطي يجر وراءه « ذيلاً ادارياً ثقيلاً » يزيد من أعبائه ويرهق

تحركه ؛ في حين كانت قوات العرب المسلمين تتحرك إلى أهدافها وهي متحررة من الاعباء الادارية ؛ وكانت تضمن لنفسها التعايش مع الوسط الذي تعيش فيه ؛ وكانت متطلباتها قليلة – نسبياً ؛ وهذا مما ساعدها على زيادة قدرتها الحركية .

ويظهر واضحاً أن القدرة الحركية العالية للعرب المسلمين لم تكن الا نتيجة المجموعة من العوامل .

أولها – تحرر الفارس العربي من استخدام الدروع الثقيلة واعتماده في حربه على الأسلحة الخفيفة .

وثانيها – ترك الخيول مجردة من السرج ؛ والركاب وعدم اثقالها بالدروع السميكة .

وثالثها – تحرر القوات من الاعباء الادارية .

ورابعها – زيادة قوة الفرسان حتّى وصل جيش المسلمين في النهاية ليصبح جيشاً من الفرسان . ويأتي بعد ذلك تنسيق التعاون الجيد بين القوات ليزيد من فاعلية القدرة الحركية للقوات وليضاعف من استثمارها .

ومن الواضح بعد ذلك ؛ أنه لم يكن باستطاعة « أبي عبيدة ابن الجراح » التحكم بجميع عوامل « القدرة الحركية » لقوات العرب المسلمين ؛ فقد كانت هذه القوات تندفع إلى الحرب « تطوعاً » أو « حشراً » أو « ندباً » وكانت تتحكم فيها مجموعة من العوامل – بينها القدرة الاقتصادية – فقد كان جيش المسلمين هو « جيش الفقراء – مادياً – » بحسب التعبير

الحديث ؛ ولم يكن كل الجند قادرين على « امتلاك الخيول » ولكن « أبا عبيدة » استطاع تدريجياً تحويل الجيش إلى « جيش من الفرسان » المتميزين بقدرتهم الحركية العالية . وكانت كفاءة « أبي عبيدة » تتمثل في هذا المجال بتحديد الواجبات الملائمة لعمل الفرسان (العمل كردء لقوات المسلمين « وعزل منطقة العمليات » والعمل كقوة استطلاع متقدمة ؛ وتنفيذ الاعمال الخاصة — كالاغارات والكمائن — والقيام بواجبات المطاردة . ثم العمل أثناء المعارك التصادمية لمجابهة فرسان الروم الثقيلة وفصلها عن مشاتهم) وكان تنسيق هذه الاعمال كلها في الاطار الشامل لكل معركة هو الذي أدى إلى زيادة استثمار القدرة الحركية ؛ والعمل على تطويرها لمصلحة حسم الصراع المسلح .

وتظهر قضية (القدرة الحركية) بالنسبة لقوات العرب المسلمين ، أيضاً ؛ وهي قضية « نوعية » يمكن لها التغلب على « الكمية » عند أعداء العرب المسلمين ؛ وتكمن هذه القدرة النوعية في « طبيعة الفارس العربي » بقدر ما تكمن بالاسلوب « التعبوي — أو — التكتيكي » الذي يمكن له الافادة من هذه النوعية وتحويلها إلى أساليب وطرائق تتوافق على مسرح العمليات مع نقاط ضعف العدو . ويكون جيش العرب المسلمين جيشاً من « النخبة المختارة » أو « العناصر المتفوقة » بحسب التعبير الحديث . وبدهي أن لا تقف هذه « النخبة المختارة » عند مستوى « الكفاءة في القيادة » فحسب بل

تتجاوزها لتشمل المقاتلين جميعهم والمجاهدين كلهم ؛ وليس من الغريب أبداً بعد ذلك أن يسير النصر في ركاب هذا الجيش ؛ وأن يكون حليفاً له في حروبه كلها .

لقد اهتمت جيوش العالم القديم بتأمين « القدرة الحركية » لقواتها [1] وركزت جهدها لتطوير قدرتها الحركية بمختلف الوسائط ؛ فاستخدمت عربات القتال ؛ كما استخدمت « الفيلة » و « الجمال » وأضافت اليها أحياناً « القدرة الحركية البحرية » ولكن جيوش العالم القديم بقيت عاجزة عن صياغة عقيدة قتالية متكاملة تجعل من القدرة الحركية وسيلة في جملة وسائط القتال . كما عجزت عن ايجاد « النوعية الممتازة » للمقاتلين وقياداتهم على حد سواء ؛ وقد جاء التتار « المغول » بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون ؛ وتعلموا ـ بحكم احتكاكهم مع المسلمين ؛ كثيراً من أسس « فن الحرب » وقد عرف العالم عن التتار أساليبهم المتقدمة [2] ولكنه لم يتمكن من فهم

---

(١) لقد حفظ جدار معبد « أبي سمبل » وصفاً لما كانت عليه « القدرة الحركية » لقوات جيش « مصر » من خلال العبارة التالية (وعندما التفت الملك وجد نفسه محاطاً بألفين وخمسمائة عربة قتال : كما وجد خط تراجعه مقطوعاً بعدد كبير من المقاتلين من البلاد المعادية ومن بلاد متحالفة معها ؛ وكانت جميع عربات الفتال مجمعة وتحمل كل واحدة منها ثلاثة رجال) .

(٢) ويذكر الكاتب العسكري البريطاني «ليدل هارت» في هذا المجال =

« التكامل » الذي تميزت به العقيدة القتالية الاسلامية والتي لم يتمكن حتى التتار من إدراك كل أبعادها ؛ رغم التشابه بينهم وبين طبيعة المقاتلين العرب . وقد يعود السبب في ذلك إلى التفاوت الكبير بين مستوى « فن الحرب » عند المسلمين وبين أعدائهم في عصر ازدهار فن الحرب لديهم مما كان يجعل عملية « التعلم » صعبة ومتعذرة ؛ وقد يكون السبب أيضاً هو محاولة فهم « فن الحرب » بمعزل عن « العقيدة الدينية الاسلامية » التي كونت « العقيدة القتالية الاسلامية » .

٤ ـ المبادأة ـ واستخدام القوة الهجومية :

ليست « القدرة الحركية » هدفاً في حد ذاتها ؛ وإنما هي وسيلة لنقل المعركة ؛ ووضع العدو أمام مواقف متجددة يصعب عليه مجابهتها مما يقنعه بعجزه عن متابعة الصراع ؛ ويرغمه على الاستسلام لارادة خصمه . ومن الطبيعي لجيوش العرب المسلمين التي انطلقت من الجزيرة لنشر الدعوة وتحرير بلاد الشام من هيمنة « الروم » أن تضع في اعتبارها أنها انطلقت للهجوم وليس لاحتلال موقع والتوقف عنده . كما أنه من

= (ان اتساع مسرح العمليات وحركية القطاعات الواسعة والاستخدام الأريب للمباغتة ، جعلت معارك هؤلاء الآسيويين ـ المغول ـ تنافس جميع المعارك التي يذكرها التاريخ ؛ ان لم تتفوق عليها) .

الطبيعي أيضاً أن تضع في اعتبارها « حتمية الصراع » في حروب متلاحقة ومعارك متتالية ؛ لا سيما وأن محاور تحرك القوات لا تترك خياراً لأحد الطرفين فأما النصر ومتابعة التقدم ، وأما الهزيمة والانسحاب ، ولم يكن أحد الطرفين ؛ قادراً على قبول خيار الانسحاب دون معركة حاسمة فكان من المتوقع أن يدور صراع مرير عند كل موقع ؛ ونظراً لاعتماد قوات الروم نتيجة لحروبهم السابقة مع الفرس خاصة ، على التحصينات الدفاعية ؛ والأسوار ؛ والمواقع الدفاعية ؛ فقد بات من البدهي أن تتعرض قوات المسلمين لمأزق من مآزق الحرب ؛ وهذا المأزق هو مجابهة أعمال الحصار الطويل في حين أن قوات المسلمين لم تكن مؤهلة لهذا النوع من الحروب ؛ كما أن الاصطدام بالتحصينات من شأنه افقاد المسلمين لميزاتهم القتالية وفضائلهم الحربية ؛ وأبرزها قدرتهم الحركية العالية ، وقوتهم الهجومية المرنة . وقد عمل « أبو عبيدة » على تطوير هذه الخصائص واستخدامها بشكل صحيح وذلك من خلال تطبيق طرائق للعمليات أبرزها :

١ ـ **ارغام العدو على مغادرة تحصيناته** والدخول معه في معركة تصادمية تكون فيها المبادأة في قبضته ويتم فيها استخدام القوة الهجومية للمسلمين ؛ واذا أمكن تجاوز معركة اليرموك فقد ظهرت هذه الطرائق في معركة « فحل » وفي معركة فتح « بعلبك » كما ظهرت أيضاً في معارك فتـح « حمص » و « اللاذقية » حيث اضطرت قوات الروم للقتال في العراء

وبعيداً عن تحصيناتها ؛ وكان فرض المعركة على قوات الروم في الزمان والمكان الملائمين بمثابة عامل أساسي يساعد « أبي عبيدة » في الامساك بالمبادأة دائماً ؛ ويضمن له تطوير الاعمال القتالية إلى أن يتم حسم الصراع المسلح لمصلحة قوات المسلمين .

٢ – استخدام القوة الهجومية في أعمال التوغل العميق حتى أثناء عمليات الحصار ؛ فقد وصلت قوة « ذا الكلاع الحميري » أثناء حصار « دمشق » إلى حدود مدينة « حمص » ووصلت قوة « خالد بن الوليد » أثناء حصار « حمص » حتى « حاضر حلب » ووصلت قوات « خالد » و « مسروق العبسي » حتى داخل بلاد الروم أثناء معركة « حمص » .

٣ – المطاردة البعيدة لفلول قوات العدو ؛ وذلك حتى لا تتمكن قوات الروم من اعادة تجمعها وتقديم مقاومات منظمة في مجابهة قوات المسلمين . ويظهر ذلك بعد كل معركة حاسمة .

لقد حاول قادة الروم في الواقع استعادة « المبادأة » في مرات كثيرة ، كما حاولوا الافادة من « قدرتهم الحركية » لاستخدام القوة الهجومية ؛ ولكن أسلوب « أبا عبيدة » في ادارة الحرب ؛ وكفاءته في تطوير المواقف حتى تلك التي يضعها قادة الروم ؛ قد أحبط مخططات هؤلاء القادة ، وحرمهم من « حرية العمل » ويظهر ذلك بصورة خاصة في معركة « مرج الروم » كما يظهر أيضاً في احباط الهجوم المضاد ضد

« حمص » وكان نجاح « أبو عبيدة » في الامساك بالمبادأة – باستمرار – وحرمان العدو منها في طليعة الأسباب التي أقنعت جند الروم بضعف قياداتهم ؛ وأفقدتهم الثقة بأنفسهم فكان في ذلك نجاح « استراتيجية الهجوم غير المباشر » والذي تمثل بالدرجة الاولى في عمليات فتح الجزيرة . ومن المعروف ؛ بعد ذلك ؛ أن ادارة المعركة الهجومية ؛ والمحافظة على المبادأة في إطار حرب الحركة هو أمر أكثر صعوبة من ادارة معركة دفاعية في مواقع مجهزة وقد كانت عمليات فتوح الشام كلها معارك هجومية ؛ وكانت المبادأة فيها دائماً بقبضة قائد الفتح « أبا عبيدة بن الجراح » وهذا في حد ذاته برهان كاف على كفاءة « أبي عبيدة » القيادية ؛ ودليل على تفوقه في حوار الارادات ضد قادة الروم .

هنا قد يكون من الضروري الاشارة إلى أن « المبادأة » و « استخدام القوة الهجومية » كانتا من بعض فضائل قوات العرب المسلمين ؛ فكان كل مجاهد يحاول – في حدود تنفيذه لواجبه – الامساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية ؛ يظهر ذلك في اقتحام « خالد بن الوليد » لأسوار « دمشق » ويظهر أيضاً في تنفيذ الاعمال القتالية الفردية ؛ ويشكل ذلك تكاملاً يساعد القائد على تحديد الهدف العام لكل واجب وترك أمر تنفيذه للمجاهدين – وهذا ما كان يحدث فعلاً – ولكن القائد يتحمل عبئاً ثقيلاً لقاء هذه الميزة وهي أنه مرغم على تطوير المبادأة بصورة مستمرة ؛ واستخدام القوة الهجومية

بطرائق متجددة . وقد يكون هذا العامل في جملة الاسباب التي أبرزت تلك الكفاءات العالية في وسط قادة العرب المسلمين .

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى :

« ينتصر في الحرب من يحتفظ بآخر طلقة وآخر رجل » تلك مقولة ذائعة ومُسَلّم بها ؛ وهي تشير إلى ضرورة احتفاظ القائد بقوات احتياطية ؛ بقدر ما تشير إلى ضرورة الاقتصاد بالقوى ؛ والاقتصاد في انفاقها ؛ ويبرهن ذلك على أن الفاصل بين المنتصر وبين المهزوم في الحرب هو فاصل دقيق جداً ؛ إذ تدمر الحرب الاطراف المتحاربة ولا تترك بينها ثمة فوارق كبيرة . ويعود السبب الاساسي في التدمير الرهيب المتبادل إلى محاولة الطرفين المتصارعين الوصول إلى الحسم في معركة رئيسية واحدة . ولكن حروب المسلمين لم تكن من هذا النوع ـ بصورة عامة ـ ويعود الاختلاف الأساسي إلى التباين الكبير في مفهوم « هدف الحرب » . فقد كان العرب المسلمون يستخدمون الحرب كوسيلة لبناء المجتمع الاسلامي ؛ ونظراً لما تتطلبه عملية البناء من جهد كبير فقد كان من الضروري حسم الصراع المسلح بأقل جهد ممكن ؛ وكانت استراتيجية « الهجوم غير المباشر » هي وسيلتهم لتحقيق « مبدأ الاقتصاد بالقوى » .

لقد حرص قادة الجيوش — عبر تاريخ الحرب — على تحقيق مبدأ « الاقتصاد بالقوى » رغم بحثهم المستمر على « الحسم في الحرب » واتبعوا في ذلك طرائق مختلفة وأساليب متنوعة منها تدابير الحيطة لحماية القوات ومنها تنظيم أعمال الاستطلاع ؛ ولم تكن « الليمات » و « الحصون » الرومانية — البيزنطية — على امتداد حدود الإمبراطورية في الغرب وأفريقية سوى وسيلة من وسائل « الاقتصاد بالقوى » كما أن « المسالح » و « المواقع الدفاعية » و « التحصينات » لم تكن أكثر من بعض وسائل « الفرس » لحماية امبراطوريتهم المترامية الأطراف ، ولتحقيق مبدأ « الاقتصاد بالقوى ».

وكان العرب المسلمون أكثر حاجة لتحقيق مبدأ « الاقتصاد بالقوى » من أعدائهم في الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ؛ فقد كانت موارد العرب المسلمين البشرية والاقتصادية محدودة في حين كانت موارد أعداء المسلمين غير محدودة ؛ وكان المسلمون يعتمدون على قدراتهم الذاتية ؛ في حين كان أعداؤهم يتصرفون بقدرات واسعة مع توفر الامكانات لتجنيد جيوش المرتزقة وتجهيز الجيوش الجرارة . وكان العرب المسلمون يقومون بالهجوم ضد المواقع والمناطق التي يحتلها أعداؤهم ؛ ومن المفروض أن تكون قوة المهاجمين أكبر (بثلاثة أضعاف على الأقل وفقاً لأحدث المفاهيم) حتى يمكن لهم إحراز النصر ؛ وحتى يتم لهم حسم الصراع المسلح لمصلحتهم .

مجموعة من العوامل ألقت بثقلها في ميزان مبدأ (الاقتصاد

بالقوى) ضد مصلحة قوات العرب المسلمين ؛ وقد سبقت الاشارة إلى بعض الأسس والمبادىء التي مارست دورها في عملية التعويض لمصلحة المسلمين ، وعلاوة على ذلك ؛ فقد طبق « أبو عبيدة بن الجراح » مجموعة من المبادىء والأسس التي أمكن لها التدخل باستمرار لمصلحة التعويض عن نقاط الضعف ؛ وكان من أبرزها :

١ ــ الوصول إلى هدف الحرب عن غير طريق الحرب ؛ والسعي لعقد اتفاقات الصلح بالطرق السلمية ؛ وضمن حدود تحقيق « غاية السلم » وإقامة المجتمع الجديد ؛ وقد حفظ التاريخ « لأبي عبيدة » أنه أول من عقد صلحاً مع أهل الشام « صلح أذرع » وكانت فتوح بلاد الشام الشمالية ، والشمالية الشرقية « الجزيرة » أكثرها صلحاً ؛ ولئن برهنت اتفاقيات الصلح هذه على نجاح « استراتيجية الهجوم غير المباشر » فانها حققت في الوقت ذاته مبدأ « الاقتصاد بالقوى » .

٢ ــ تنفيذ الاعمال في جو من « التشتيت الكامل » سواء على مسرح العمليــات أو على المسارح المجاورة . فقد كان « أبو عبيدة » يدفع قواته باستمرار حتى أبعد مجال من أفق المعركة . وفي الوقت ذاته ؛ كانت بقية الجيوش الاسلامية تخوض معاركها في كل مكان ؛ فكان « شرحبيل بن حسنة » يتابع الجهاد في « الاردن » ويقيم دعائم المجتمع الاسلامي ؛ وكان « عمرو بن العاص » يعمل على تصفية بقية جيوب

المقاومة في « فلسطين » بعد أن تجاوزتها قوات المسلمين بمسافات بعيدة ؛ ولم يبق لها من مخرج سوى البحر وسوى اللجوء إلى « مصر » . كما كان « معاوية بن أبي سفيان » يحرر بقية الجيوب الساحلية في ساحل الشام بينما يتابع « يزيد بن أبي سفيان » إقامة المجتمع الجديد في دمشق ؛ وفي هذا الجو التشتيتي الشامل ؛ كان من المحال على قيادة الروم تطوير أعمالها القتالية على أي جبهة من الجبهات .

٣ - إظهار العناد والتصميم لبلوغ « هدف الحرب »

فقد كان « أهل الشام » يتوقعون انصراف المسلمين عنهم بعد فترة من الحصار الطويل ؛ وكان أهل « حمص » يأملون أن ترغم قسوة الشتاء وقوة المقاومة جند المسلمين على الانسحاب ؛ ولكن ذلك لم يحدث ؛ مما أقنع بقية المواقع بعدم جدوى المقاومة .

وكانت فضائل « جيش المسلمين » قبل كل شيء عاملاً حاسماً في تحقيق مبدأ « الاقتصاد بالقوى » كما كانت « إدارة الحرب » والكفاءة العالية في تنظيم الاعمال القتالية عاملاً حاسماً أيضاً . ولئن كانت بعض عوامل تحقيق مبدأ « الاقتصاد بالقوى » خارجة عن قيادة « أبي عبيدة » وصلاحياته ؛ فان تنسيق عملياته مع عمليات القادة في المسارح الأخرى هو في حد ذاته العمل الأول للقيادة الناجحة ؛ وبذلك كان كل نجاح على مسرح من مسارح العمليات ينعكس على بقية المسارح ؛

وأمكن بذلك تحقيق النصر بالثمن المقبول مما سمح بتوفير القدرة الضرورية لمتابعة المراحل التالية . ولقد فشلت جيوش كبيرة مجهزة بأحدث الوسائط ؛ على مر العصور ؛ بالوصول إلى أهدافها بسبب إهمالها لمبدأ « الاقتصاد بالقوى » وبسبب فشلها في تحقيق التوازن (بين الوسيلة والهدف) وبسبب عجزها عن تنسيق أعمالها القتالية مع ما يتم تنفيذه على جبهات أخرى (والمعارك التي قادتها النازية والفاشية في الحرب العالمية الثانية هي أفضل مثال على ذلك) ولئن كانت النسبة الكبرى من الفشل تقع غالباً على عاتق القيادة الاستراتيجية ؛ فان ذلك لا يعفي قادة مسارح العمليات من مسؤولياتهم ؛ وعلى هذا فاذا كان الحظ الاكبر من النجاح هو نتيجة لكفاءة القيادة الاستراتيجية التي كان يقودها « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ، فان ذلك لا ينتقص من كفاءة أبي عبيدة القيادية التي حققت كل أهدافها ؛ وخرجت من الحرب وهي أكثر قوة مما كانت عليه قبل دخولها .

٦ ـ المحافظة على الهدف :

تتطلب « المحافظة على الهدف » قبل كل شيء « معرفة الهدف بوضوح » بقدر ما تتطلب تصميماً وعناداً كبيرين من أجل عدم الانحراف عن الهدف ؛ وقد كان هدف السياسة ـ الاستراتيجية لجيوش الفتح واضحاً كل الوضوح ؛ ولم تكن

قيادات جيوش الفتح ولا قواتها مفتقرة للعناد أو التصميم . ولكن ؛ وبقدر ما كان عليه مثل هذا الوضوح على مستوى السياسة — الاستراتيجية فان الموقف على مستوى العمليات كان أقل من ذلك لاسيما وقد كان للعدو أساليبه وطرائقه للتدخل في أهداف العمليات وفي الطرائق التعبوية — التكتيكية — المؤدية إلى الهدف . ومن هنا تظهر كفاءة قادة العرب المسلمين ؛ وفي طليعتهم « أبو عبيدة بن الجراح » في المحافظة على الهدف ضمن مجال « أفق العمليات » .

عندما أطلق أمير المؤمنين « أبو بكر الصديق » جيوش المسلمين لفتح الشام ؛ حدد لها الهدف العام « الفتح وإقامة مجتمع المسلمين » وقسم البلاد إلى أربعة مناطق للعمليات (الاردن ؛ فلسطين ؛ دمشق ؛ بقية بلاد الشام — أو شمال دمشق) وقام كل قائد في تحديد الأهداف ضمن منطقته بحسب الطبيعة الجغرافية والتوزع السكاني في المدن والعواصم ؛ فاتبع « أبو عبيدة » المحور الداخلي بعلبك — حمص — قنسرين — حلب مروراً ببقية المراكز . وعندما أنهى ذلك انطلق إلى المحور الساحلي . انطاكية — اللاذقية — جبلة — طرطوس . وخلال ذلك تم فتح المناطق الواقعة بين المحورين الساحلي والداخلي . وكانت خطة الفتح واضحة تماماً بحيث لم يتم الانتقال من المنطقة الداخلية إلى المنطقة الساحلية (الا بعد تكوين قاعدة قوية ومضمونة في الداخل) ومن الواضح الآن أن قوة الروم « البيزنطيين » كانت تعتمد على القدرة البحرية

بالدرجة الأولى ؛ كما أن المنطقة الساحلية تتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بالامبراطورية البيزنطية عن طريق انطاكية - محور ما وراء الدروب - عبر جبال أمانوس ؛ ويمكن التساؤل عما سيصير اليه الموقف لو لم يتوفر مثل هذا الوضوح في خطة الفتح وفي المحافظة على الهدف ؟ لقد بقيت المنطقة الساحلية معرضة للاغارات البحرية طوال العهد الاموي ، رغم تكثيف الصوائف والشواتي ورغم زيادة حجم التهديد البحري للامبراطورية البيزنطية ، وعلى هذا فقد كان مخطط العمليات باعتماده على اقامة القاعدة القوية في الداخل انما حقق الهدف ، وضمن « المحافظة على الهدف » في وقت واحد ؛ وبقيت المنطقة الداخلية هي القاعدة الصلبة باستمرار لحماية المنطقة الساحلية ودعمها في كل مرة تتعرض فيها للتهديد ؛ وليس من قبيل المصادفة أن يركز الروم هجومهم المضاد في العام ١٧ هـ للاستيلاء على « حمص » إذ لو تم لهم ذلك لانهارت المنطقة الساحلية بصورة آلية . كما انه ليس من قبيل المصادفة أن يتخذ « أبو عبيدة » من « حمص » مقراً دائماً لقيادته (في أواسط أعمال الشام) بحيث كان يستطيع توجيه قواته منها نحو كل اتجاه يتعرض للتهديد .

استطاع « أبو عبيدة بن الجراح » المحافظة على الهدف في كل مرحلة من مراحل أعماله القتالية ولم تتمكن مقاومات الروم المتتالية تحويله عن هدفه ؛ كما لم تتمكن مغريات « سهولة الفتح » أن تحوله عن محور عملياته ؛ ومضى إلى أهدافه

المتتالية ؛ وفق مخططه الاساسي بتصميم كبير وبرهنت النتائج التالية على صحة تقويم « أبي عبيدة » وإلى أهمية التزامه بمبدأ « المحافظة على الهدف » ولعل أبرز ما يبرهن عليه هذاالالتزام هو أن عمليات الفتوح لم تكن ضربة مباغتة في غفلة من الدهر ؛ ولم تكن مرتجلة تعتمد على « ردود الفعل » ، وانما كانت تخضع لتخطيط دقيق ومحكم يحدد الهدف ، ويضع ما هو ضروري من تدابير للمحافظة على الهدف .

٧ – وحدة القيادة :

أخذ مبدأ « وحدة القيادة » في اكتساب أهمية متعاظمة يوماً بعد يوم ؛ في ظروف الحرب الحديثة ؛ حتى أن بعض العقائد القتالية ، وضعته في مقدمة « مبادىء الحرب » وكذلك فعل عدد من الكتاب العسكريون . وتعتبر مثل وجهات النظر هذه أن المعركة ليست سوى تنسيق للتعاون بين القوى والوسائط المشتركة من أجل تحقيق النصر والوصول إلى « هدف الحرب » وعلى هذا الأساس يصبح من المحال ادارة الحرب إن لم تكن هناك « وحدة في القيادة » وقد برهنت تجارب الحرب في كثير من الاحيان أن عدم وحدة القيادة كثيراً ما كانت سبباً في فشل عدد كبير من المعارك وخسارة بعض الحروب التي تعتمد على الحسم في معركة كبيرة واحدة . وتظهر سيرة « أبي عبيدة ابن الجراح » أنه كان النموذج الأعلى للايمان « بوحدة القيادة »

والعمل بوحي من هذا الايمان ، فقد قاد « أبو عبيدة » قوات الدعم إلى معركة « ذي القصة » وعندما اختلف مع « عمرو بن العاص » على القيادة قال له : (لقد أوصاني الرسول ﷺ وقال : لا تختلفا فإن أنت عصيتني أطعتك) وأسلم القيادة « لعمرو بن العاص » وقد قاد « أبو عبيدة » بعض سرايا الرسول وكان فيها كبار الصحابة وفيهم « أبو بكر » و « عمر » وعرف أن القيادة هي تكليف لتنفيذ واجب معين وليست تشريفاً أو مكافأة أو مغنماً ؛ وتعلم « أبو عبيدة » عن هذه الطريق أهمية « وحدة القيادة » بقدر ما تعلم التمييز بين « القيادة الاستراتيجية » وبين « قيادة العمليات » وكان مثل هذا التمييز واضحاً وبشكل رائع في تفكير « أبي عبيدة » وفي ممارسته لادارة الحرب على مستوى العمليات .

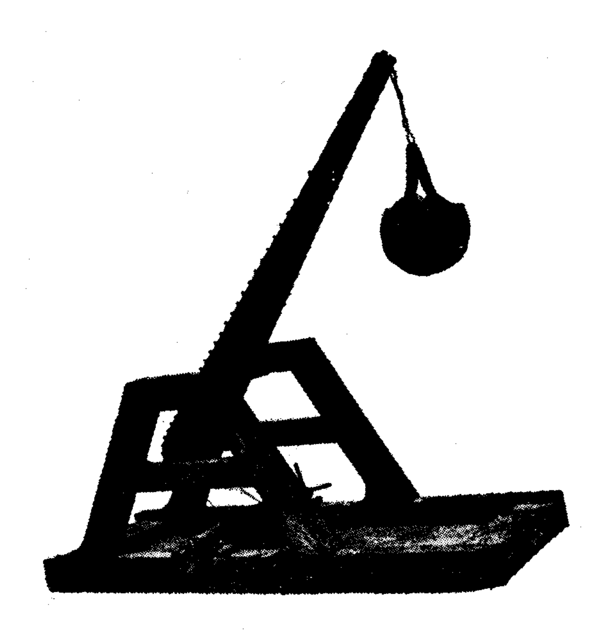
كان « أبو عبيدة » واثقاً من نفسه ومن امكاناته وقدراته ؛ وكان يعرف مكانته من المسلمين قادتهم وعامتهم ؛ وكانوا جميعاً يعرفون له هذه المكانة ويحفظونها ؛ ومن خلال هذه المعرفة يمكن تقويم أسلوب « أبي عبيدة » في « وحدة القيادة » ادراكاً وممارسة ؛ فقد عرف أن النجاح في تنفيذ الواجب انما يرتبط وإلى حد بعيد بوحدة القيادة وبوحدة العمل على كل المستويات ؛ ولقد كان باستطاعة « أبي عبيدة » ممارسة استقلالية في العمل تبتعد عن مركزية السلطة ؛ ولكنه كان سيحرم نفسه من إمكانات الدعم كما كان سيحرم قواته من نتائج تنسيق التعاون مع بقية قوات المسلمين سواء على جبهة الشام أو على

الجبهات الأخرى ؛ وكان من الصعب – في مثل هذه الحالة توقع النتائج الخطيرة التي ستنتهي اليها عمليات الفتح بكاملها ؛ مع احتمال ما يمكن أن يتعرض له المسلمون من نكبات أو كوارث .

تظهر قضية « وحدة القيادة » بالنسبة « لأبي عبيدة » على أنها قضية إيمان عميق وغير محدود بأهمية الهدف قبل كل شيء ؛ وبالثقة المطلقة وغير المحدودة أيضاً بأمراء المؤمنين وبقادته ومرؤوسيه . وكان ذلك الايمان ؛ وتلك الثقة هما الموجهان له في أقواله وأعماله .

التزم « أبو عبيدة » بمبدأ وحدة القيادة التزاماً تاماً ؛ وكان التزامه متكاملاً ؛ فقد ترك أمور السياسة – الاستراتيجية لأمير المؤمنين حتى يقررها بنفسه ؛ ومقابل ذلك فقد حرص على تحقيق المركزية القوية على مستوى مسرح العمليات ؛ وكان لا يسمح لأحد من قادته ومرؤوسيه بتجاوز حدود الواجبات التي يكلفهم بها ؛ وقد يكون السبب في ذلك هو شعوره بمسؤوليته تجاه حياة جنده ؛ ولكن رغم ذلك فان هذا الشعور هو أحد مقومات شخصية القائد ؛ ولا يتعارض في كل الاحوال عن متطلبات تحقيق مبدأ « وحدة القيادة » . ولم يكن « أبو عبيدة » في كل الأحوال ممن تغرهم القيادة أو تغريهم مراكز القوى بما تضمه من مميزات السلطة والسيطرة . وكان يعرف ؛ كما يعرف المسلمون أيضاً أنه فوق القيادة

التي كان يمارسها ؛ ويبرهن ذلك كله على أن التزام « أبا عبيدة » بمبدأ وحدة القيادة انما كان التزاماً طوعياً ينطلق من الايمان بالهدف الذي يعمل له ، والذي يتولى قيادة المسلمين من أجله .



الفصل الثالث

قيادة « أبو عبيدة بن الجراح »

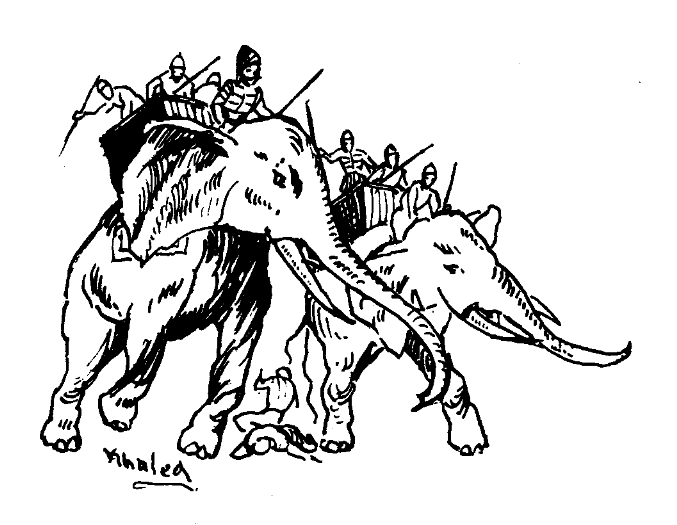
آ ــ « أبو عبيدة بن الجراح » وفن القيادة .

١ ــ الاهتمام بالشؤون الادارية « اللوجيستيك » .
٢ ــ العنف في القضاء على أعداء المسلمين .
٣ ــ التحريض والحض على القتال .
٤ ــ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر .
٥ ــ القرارات الصحيحة .
٦ ــ حماية المرؤوسين .

ب ــ « أبو عبيدة » وقوات المسلمين .

١ ــ الاستعداد الدائم للقتال .
٢ ــ الروح المعنوية العالية .
٣ ــ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب .
٤ ــ أبو عبيدة « وما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية » .
٥ ــ أبو عبيدة وحرية العمل .
٦ ــ الانضباط والطاعة .

ج ــ ما بعد « أبو عبيدة بن الجراح » .


Khaled

آ ـ أبو عبيدة بن الجراح وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الادارية « اللوجيستيك » :

كان « أبو عبيدة بن الجراح » مسؤولاً عن تأمين الامداد الاداري لقواته ؛ وعلى الرغم من توفر المواد التموينيـــة والامدادات في مسرح العمليات ؛ إلا أن هناك قيودا صارمة قد فرضت لتأمين هذا الامداد . فقد كان على قوات المسلمين تجنب الاستيلاء على المواد التموينية من المدنيين ومن أهالي البلاد غير المحاربين ؛ كما كان على القوات تجنب الحقول المزروعة والبساتين وعدم ايذاء الأشجار المثمرة ؛ مع ضرورة دفع ثمن كل ما تشتريه القوات . وقد أمكن في الواقع تأمين الامداد الاداري باتباع الاساليب التالية :

١ ـ الحصول على المعلومات الدقيقة عن قوافل امداد العدو وتموينه والاغارة عليها ومصادرتها لحساب قوات المسلمين ؛ ولما كانت قوافل الامداد ـ غالباً ما تسير تحت حراسة جيدة فقد نظمت الاغارات بأعداد قوية حتى تتم إبادة

الحامية المرافقة للقافلة ثم مرافقة الغنائم وحراستها حتى الوصول بها إلى مواقع قوات المسلمين .

٢ - الاتفاق في نصوص المعاهدات المعقودة مع سكان البلاد على تأمين الامداد الاداري للقوات وكان يتم احتساب ثمن المواد التموينية من أصل الجزية المفروضة .

٣ - تأمين المتطلبات الضرورية من الأهلين - عن طريق الشراء والمبادلة - وقد توفرت لقوات المسلمين امكانات جيدة بفضل ما حصلوا عليه من غنائم في معاركهم المتتالية (ويتضمن النظام الاسلامي على ما هو معروف توزيع أربعة أخماس الغنائم على المجاهدين ويبقى الخمس لبيت الله) وكان يحتسب للراكب (الفارس) سهمين مقابل سهم واحد لجندي المشاة . وقد بلغت الغنائم في كثير من المعارك مبلغاً جيداً ساعد المشاة على التجهز بالخيول والتحول إلى قوات الفرسان .

وكان « أبو عبيدة » يحرص على تنظم الامداد الاداري بواسطة مفارز يتم التناوب فيما بينها ؛ وذلك لتحقيق مجموعة من الأهداف أولها انقاص حجم القوات المكلفة بالتأمين الاداري حتى الحد الادنى وبحيث لا ينصرف المقاتلون عن واجباتهم من أجل تأمين متطلباتهم الحياتية . وثانيها - حصر مسؤولية التأمين الاداري بعناصر معينة مما ينفي كل امكانية لحدوث احتكاك بين المقاتلين من المسلمين وبين أهل البلاد من غير المحاربين . وثالثها ضمان الأمن للقوات بحيث لا يضطر

المقاتلون للابتعاد عن معسكر المسلمين . هذا وكانت منطقة الشؤون الادارية تقع أثناء المعركة أو أثناء التوقف القصير في مؤخرة قوات المسلمين وكان النساء والأولاد يقيمون في منطقة الشؤون الادارية ويعملون على تأمين الخدمات الضرورية سواء للمساعدة في اعداد طعام المقاتلين أو من أجل إسعاف الجرحى ودفن الشهداء ؛ أو حتّى للاشتراك في القتال اذا ما تطلب الأمر – على نحو ما حدث في اليرموك ؛ وفي عدد من المعارك الأخرى . أما في حالة المسير فكان الرتل الاداري عادة ما يسير في قلب القوات أو في مؤخرتها بحسب الموقف وذلك من أجل حمايته .

تظهر أعمال « أبي عبيدة بن الجراح » ان اهتمامه بالشؤون الادارية قد تركز على حرمان الروم « البيزنطيين » من مواردهم التموينية ومتطالباتهم الحياتية ؛ وتأمين تعايش قوات العرب المسلمين على حسابهم ؛ ولم تكن بلاد الشام محدودة الموارد الزراعية والاقتصادية حتّى تشكل قوات المسلمين عبئاً عليها ؛ كما ان متطلبات تلك القوات كانت محدودة نسبياً لسببين : أولهما – ان حجم القوات بقيت محدودة وأقل بكثير من حجم قوات الروم التي كانت تتعايش على حساب بلاد الشام ؛ وثانيهما أن متطلبات تلك القوات بقيت قليلة نظراً لما عرف عن المقاتل المسلم من زهد وتقشف . وعلاوة على ذلك فقد كانت بلاد الشام ؛ معروفة باسم « اهراءات الرومان » دلالة على خصبها وغزارة مواردها الزراعية التي تضمن امداد الجيوش

الرومانية الحرارة وتؤمن لها الامداد بالأطعمة والأغذية . ويتأكد ذلك أيضاً من خلال وصول أول قافلة للامداد إلى الجزيرة العربية من بلاد الشام بقيادة « أبي عبيدة بن الجراح » وذلك عندما طلب أمير المؤمنين « عمر » إلى ولاته في الاقاليم ارسال الامدادات لتأمين الطعام لسكان الجزيرة ، عندما أصيبت الجزيرة العربية بالقحط في عام الرمادة (١٧ هـ) .

وتبقى الظاهرة الاساسية في اهتمام « أبي عبيدة » بالشؤون الادارية ؛ وهي عدم اعطاء أفضلية « التأمين الاداري » على حساب متطلبات العمليات أو الواجبات التعبوية « التكتيكية » وعلى سبيل المثال فقد كانت أعمال الحصار الطويل تتطلب تأمين المتطلبات الضرورية « كالمجانيق والاوهاق والحبال ... الخ » ولكن المحافظة على فضائل جيش المسلمين (وفي طليعتها المرونة وخفة الحركة) وتوفر الرغبة بعدم ارهاق القوات بالأعباء الادارية التي تتطلبها أعمال الحصار ؛ فرضت تجنب محاولات الاقتحام بالقوة واللجوء إلى المناورات الخداعية لاخراج المقاتلين من حصونهم وأسوارهم ؛ والدخول معهم في معركة تصادمية تتوافق ومعطيات العقيدة القتالية الاسلامية . وبذلك عمل « أبو عبيدة » على تطوير الأساليب التعبوية والعملياتية للتعويض عن القصور في الامداد الاداري بالمعدات الهندسية ؛ مما أدى بصورة غير مباشرة إلى تطوير « فن الحرب » .

تأتي بعد ذلك الظاهرة الثانية والتي لا تقل أهمية عن الأولى في مجال « الاهتمام بالشؤون الادارية » وهي عدم حل هذه

المشكلة على حساب (غاية المسلم) . ومن المعروف أن جيوش العالم القديم والحديث تدمر كل ما تصادفه في طريقها ؛ أحياناً من أجل تأمين متطلباتها الادارية ؛ وأحياناً لحرمان العدو من هذه المتطلبات ؛ وفي أحيان أخرى من أجل تحقيق هدف التدمير في حد ذاته (بسبب ضعف الانضباط وفقد السيطرة على القوات وتعاظم روح الحقد وحب النهب لدى القوات) ولكن فضائل (جيش المسلمين) وأسلوب « أبو عبيدة » في إدارة الحرب كانت كلها ضوابط قوية وصارمة ضمنت (التأمين الاداري للقوات) دون الاساءة لأهل البلاد ؛ ودون الحاق ضرر يعيق عملية (بناء مجتمع المسلمين) [1] وتبقى

---

(١) يقابل هذه الصورة ، في القرن السابع الميلادي ؛ صورة جيش نابليون بونابرت في القرن الثامن عشر والذي عمل على تدمير المناطق التي يعيش فيها لتأمين امداداته الادارية (وكان الامبراطور يقر بأنه ليس في وسع نظامه الحربي قبول انضباط قاس ، نظراً لأن جنوده لا يعيشون على الاعاشة المنظمة؛ وكان محظوراً أن يتحدث أحد الى الامبراطور بذلك) وتظهر الصورة المناقضة أيضاً لفشل التوفيق بين عمل الجيوش وبين تأمين متطلباتها الادارية ضمن حدود تحقيق (غاية السلم) من خلال ما تعرض له الجيش الافرنسي في الجزائر العربية (حيث وضع الجنرالات مبدأ الاجتياح التخريبي كعقيدة للقتال في الجزائر ؛ ... فلم يحرقوا البلاد سراً ، ولم يذبحوا الأعداء وهم ينظمون الشعر الانساني ؛ بل كانوا يحصلون على المجد من جراء ذلك) ــ المؤلف ــ

قضية الاهتمام بالشؤون الادارية عند « أبي عبيدة بن الجراح » قضية مقيدة بضوابط صارمة ووسيلة لتأمين الحد الأدنى من متطلبات القوات الضرورية ؛ وبما لا يعيق الافادة من فضائل قوات المسلمين في الحرب ؛ ولا يعيق تحقيق « غاية السلم » بعد الحرب . وهنا يظهر « أبو عبيدة » نموذجاً فريداً بين قادة تاريخ الحرب ؛ كما يظهر جيش المسلمين جيشاً فريداً في فضائله وخصائصه .

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين :

المقصود في « العنف في القضاء على أعداء المسلمين » هو ذلك العنف الذي يهدف إلى تصفية أعداء الاسلام بصورة شخصية نظراً لمواقفهم المناوئة للاسلام ، أو بسبب نكايتهم بالمسلمين والكيد لهم ؛ وهو غير استخدام « العنف بالحرب » إذ أن « استخدام العنف في الحرب » هو مبدأ أساسي في حروب المسلمين التي تهدف باستمرار إلى « الحسم في المعركة » ومن المحال التفكير « بالحسم » أو الوصول اليه عن غير طريق إبادة قوات الخصم وقتل كل من حمل السلاح ضد المسلمين .

لم يعرف عن « أبي عبيدة بن الجراح » أنه لجأ إلى العنف في القضاء على أعداء المسلمين إلا عندما تصدى له أباه في معركة « بدر الكبرى » وقد حاول « أبو عبيدة » مرات كثيرة

تجنب الصدام المباشر مع « أبيه » وفاء لحقوق الأبوة ؛ والتزاماً بتعاليم الاسلام ؛ وتوصيات الرسول ﷺ الذي كان يوصي بالطاعة للأبوين (إلا في حدود عدم معصية الخالق) وعندما وجد « أبو عبيدة » أنه مكره في النهاية على مجابهة أبيه عمل على قتله . فنزلت فيه الآية الكريمة (لا تَجِدُ قَوْماً يؤمنون بالله واليَوْمِ الآخرِ ؛ يُوادّوُن من حَادَّ الله ورسُولَهُ ـ المجادلة ـ ٢٢) وواضح أن « أبا عبيدة » قد رغب في تجنب العنف ؛ وبصورة خاصة والأمر متعلق بأقرب الناس إليه ؛ إلا أنه لم يتردد عن اللجوء اليه عندما وجد نفسه أمام مأزق لا مخرج منه إلا بالعنف .

والعنف في الحرب ؛ بعد ذلك ؛ طبيعة ملاصقة للصراع ، إذ لو انتفى العنف لانتفت صفة أساسية من صفات الحرب ؛ وقد كان « أبو عبيدة » محارباً من الطراز الأول في جيش « النخبة المختارة » فكان من الطبيعي أن يستخدم العنف في الحرب حتّى حدوده القصوى ؛ ولهذا فما ان انتهت معركة اليرموك حتّى وجه « أبو عبيدة » مفارز للفرسان بهدف ابادة فلول القوات المنهزمة ؛ وفي المعارك التالية حرص أبو عبيدة على تدمير قوات العدو تدميراً شبه كامل (« في معركة مرج الروم » بصورة خاصة) ولكن الظاهرة المميزة هي تقنين الحرب بدقة بحيث تقتصر على محاربي العدو ؛ وفي إطار ميدان

المعركة [1] ويمكن اعتبار ظاهرة (العنف في القضاء على أعداء المسلمين) سواء على المستوى الفردي ؛ أو على مستوى الصراع المسلح في ميادين القتال إحدى الوسائل التكميلية لتدمير الاختلاف الكبير في ميزان القوى وتحويله لمصلحة العرب المسلمين . كما يمكن اعتبـــار هذه الظاهرة أيضاً وسيلة تكميلية لتحقيق (استراتيجية الهجوم غير المباشر) وردع أعداء المسلمين عن التفكير في مجابهة قوات العرب المسلمين ؛ ويتأكد ذلك من خلال التقنين المحكم والدقيق في الفصل بين أسلوب التعامل مع المحاربين الذي يعتمد على « العنف » وبين أسلوب التعامل مع غير المحاربين والذي يعتمد على (اتفاقيات الصلح ؛

---

(١) لقد حاولت جيوش العالم قديمها وحديثها تقنين الحرب ؛ والفصل بين المحاربين وغير المحاربين ولكن جميع الجيوش فشلت في ذلك – باستثناء بعض الحالات الخاصة – وتشير الشواهد الحديثة إلى اتجاه الحرب نحو مزيد من التطرف في أعمال العنف ؛ وعدم التمييز بين المحاربين وغير المحاربين ؛ سواء في الحروب الثورية (كما حدث في الجزائر وفييتنام) أو في الحروب النظامية . وتشير التقديرات إلى أنه قد سقط في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ١٨ مليون مدني قتيلاً مقابل ١٢ مليون عسكري . وتشير توقعات استخدام القنبلة الذرية إلى احتمال سقوط قتيل واحد مقابل جريح واحد في الجيوش و ٢,٥ قتيلاً مقابل جريح واحد في السكان المدنيين ، على حين لم تكن المقاييس العسكرية تتجاوز في السابق قتيلاً واحداً مقابل ٣ أو ٤ جرحى .

والمهادنة واكتساب ثقة المواطنين من خلال تعريفهم بمبادىء الدين الاسلامي وقواعده) ويمكن – دون مبالغة – اعتبار القائد « أبي عبيدة بن الجراح » نموذجاً رائعاً ، وأمثولة تجسد كل الفضائل الحربية التي سبق ذكرها ؛ وأبرزها تقنين الحرب والتحكم فيها بكفاءة عالية .

٣ – التحريض والحض على القتال :

وضع الرسول ﷺ أساس تقاليد الحرب عند العرب المسلمين ؛ ومنها الحض على القتال التزاماً بقوله تعالى : (يا أيُّها النَّبيُّ حَرِّضِ المُؤْمنِينَ عَلى القِتَالِ ؛ إنْ يكُنْ منكُمْ عِشْرونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتَيْنِ؛ وإنْ يَكُنْ مِنكُم مائَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِنَ الذيّنَ كفَرُوا بأنَّهم قومٌ لا يَفْقَهونَ)[1] وأخذت بعد ذلك تقاليد حرب العرب المسلمين في التشكل حتى أصبحت نظاماً متكاملاً يمثل (الفضائل الحربية لجيوش العرب المسلمين) فكانت الحرب تبدأ بالتنظيم والاستعداد للمعركة ، ثم الصلاة وقراءة سورة الجهاد وتعميم شعار المعركة ؛ وانطلاق القادة للتحريض والحض على القتال . وقد نقل عن « أبو عبيدة » مقتطفات من مواقفه في الحض على الجهاد والتحريض على القتال . ومنها ما قاله في اليرموك

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٥ .

(عباد الله ! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . عباد الله ! اصبروا فان الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار . لا تتركوا مصافكم ؛ ولا تخطوا اليهم خطوة ؛ ولا تبدؤوهم بالقتال ؛ وأشرعوا الرماح ؛ واستتروا بالدرق ؛ والزموا الصمت ؛ إلا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله) ومما قاله في معركة بعلبك (اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم ؛ فان بقيت كانت وبالاً على من صالحتم ؛ ولا تقدرون على سفر ولا على غيره) .

يظهر للوهلة الاولى ؛ وبشكل واضح ؛ أن أسلوب « أبي عبيدة » في التحريض على القتال إنما يمثل ما يطرح في عملية « تنسيق التعاون » قبل المعركة بهدف تحديد واجبات المقاتلين وتصوير أسلوب المعركة وتصورات القائد لها مع ما يمكن مجابهته من احتمالات ؛ بالاضافة إلى ابراز أهمية المعركة بالنسبة لمسيرة الأعمال القتالية .

يبدأ « أبو عبيدة » حديثه إلى المقاتلين ؛ وهو يحرضهم على القتال ؛ فيقول لهم : (عباد الله ! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله ! اصبروا فان الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار) . ويلاحظ أن جميع القادة يشتركون في التحريض على القتال بمثل هذه المقدمة ؛ فالنصر أبداً من عند الله ؛ والثقة كبيرة بأن ينصر الله عباده المخلصين في

الجهاد ؛ الذين خلفوا الدنيا وراءهم وأقبلوا على الآخرة يبتغون رضاء الله ومغفرته : وقد وعدهم الله بالنصر (ان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) وقد تحقق المسلمون بأنفسهم بأن (الله صدق وعده ؛ وأعز جنده) فقد خاضوا معارك كثيرة كان فيها ميزان القوى باستمرار في غير صالح المسلمين ؛ وكان النصر فيها باستمرار إلى جانب المسلمين ولم يبق لدى المسلمين ريبة أو شك بصدق وعد الله للمسلمين إن هم صدقوا النية ؛ وإن هم أخلصوا في عملهم . فكان تذكير القادة للمقاتلين بضرورة الاخلاص في الجهاد حتى يصدق الله وعده . شرط بشرط ؛ اخلاص المسلمين مرتبط بصدق الوعد والتأييد بالنصر من قبل الله عز وجل . ويأتي بعد ذلك تقرير المبادىء الخاصة بتنسيق التعاون (لا تتركوا مصافكم ؛ ولا تخطوا اليهم خطوة ؛ ولا تبدؤوهم بالقتال ؛ وأشرعوا الرماح ؛ واستتروا بالدرق) وقد لا تكون هناك حاجة لابراز أهمية هذه التوصيات ؛ فجيش الروم كان يعتمد على قوة الصدمة التي تزيل من أمامها كل قوة ؛ وجيش المسلمين كان يعتمد على المرونة ؛ ولم يكن باستطاعة هذه المرونة أن تجابه قوة الصدمة ؛ ولهذا فقد نظم القادة قواتهم في اليرموك على أساس الافادة من ميزات الأرض وتكوين جدار صلب يمكن له امتصاص قوة صدمة الروم ؛ ثم الافادة بعد ذلك من مرونة قوة المسلمين لتوجيه ضربة مضادة يمكن لها احداث ثغرة في الجدار الصلب لقوات الروم ؛ وعلى هذا

الأساس أوصى « أبو عبيدة » قواته بالالتصاق بالأرض ، وعدم الخروج على الصف ؛ أي البقاء في أنساق المقاتلين ؛ وعدم التحرك ولو خطوة واحدة في اتجاه « الروم » وترك الروم يتقدمون بقوة فرسانهم للاصطدام بجدار قوة المسلمين حتّى تتكسر حدة الهجوم ؛ وحتّى تتوفر الفرصة المناسبة للهجوم المضاد . وقد حدد « أبو عبيدة » . استخدام الرماح لامتصاص صدمة الفرسان الثقيلة لقوات الروم . وكان « أبو عبيدة » يتوقع أن يقوم مشاة الروم بالرمي بغزارة لدعم قوة الفرسان المتقدمة ؛ ولهذا فقد أوصى قواته باستخدام « التّروس » و « الدرق » للوقاية من رمي المشاة .

بكلمات قليلة أوجز « أبو عبيدة بن الجراح » قصة المعركة بكاملها ؛ وحدد بدقة أسس تنظيم التعاون للمعركة ؛ والأمر الأكثر أهمية هو أن قصة المعركة قد أبرزت الخصائص الأساسية لقوات العرب المسلمين والقوات المقابلة لهم ؛ مع تحديد أسلوب العمل المناسب لمعالجة خصائص تفوق قوات العدو ؛ والافادة من قوات المسلمين . ولعل مثل هذا الموقف ؛ لو تم طرحه في ظروف الحرب الحديثة لاحتاج إلى ايضاحات كثيرة ؛ ولكن المعرفة المشتركة بين القائد وجنوده لكل ما يتعلق بظروف المعركة كان يعوض عن الحاجة للمزيد من الايضاح .

ويتعمد « أبو عبيدة » ابراز أهمية « هدف الحرب » من خلال التحريض على القتال ، فيقول لجنوده في معركة « بعلبك » (اعلموا ان هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم ؛

فان بقيت كانت وبالاً على من « صالحتم » ولا تقدرون على سفر ولا على غيره) وهنا لا تنبع أهمية « هدف الحرب » من قيمته المطلقة ، وإنما من العوامل المكونة له ؛ فأهمية بعلبك تنبع من موقعها المتوسط بين مدن الشام ومن تحكمها بعقدة الاتصال بين شمال بلاد الشام وجنوبها ؛ وبين الداخل والساحل ؛ ونظراً لأن طبيعة التحرك في الحروب القديمة كانت مرتبطة بمحاور العمليات ومحاور الاتصالات فان الاستيلاء على بعلبك يكتسب أهمية خاصة أبرزها « أبو عبيدة » في تحريض جنده على القتال ؛ وتبرز النقطة الثانية في التحريض من خلال التزام المسلمين بحماية أهل البلاد من كل عدوان ؛ ولهذا يضع أبو عبيدة هذا العامل في طليعة العوامل المكونة لأهمية الهدف ، إذ أن عدم استيلاء المسلمين على « بعلبك » سيجعلها وبالاً على من صالحوا المسلمين من أهل البلاد . وهو يعطي هذا العامل أهمية تزيد على أهمية العامل الأخير وهو عدم تمكن قوات المسلمين من السفر أو التحرك إذا ما بقيت بعلبك في قبضة أعداء المسلمين .

يخاطب « أبو عبيدة بن الجراح » عقول جنده بمثل ما يستثير قلوبهم وحماستهم ؛ وقد لا يكون جند المسلمين في حاجة لما يثير حماستهم ، ولكنهم كانوا وباستمرار في حاجة لمعرفة أهدافهم المتتالية . وهم في حاجة أيضاً لمعرفة الموقف الذي يجابهونه ، وكان « أبو عبيدة » في تحريضه على القتال حريصاً على تحقيق ذلك ؛ والاستجابة لرغبة جنوده . فكان يلخص

لهم الموقف بكلمات قليلة ؛ وكانت هذه الكلمات أقرب إلى « أمر القتال الوجيز » منها إلى « تنسيق التعاون التفصيلي » ولكنه يجمع في واقعه ايجاز أمر القتال إلى تعليمات تنسيق التعاون . وبذلك يمكن اعتبار « أبي عبيدة » رائداً من رواد قادة العرب المسلمين الذين وضعوا أساس فكرة تنسيق التعاون بمفهومها الحديث . وعلى الرغم من عمل قادة العرب المسلمين جميعاً على جعل (التحريض على القتال) من تقاليد القتال الاسلامية وذلك التزاماً منهم بتعليمات العقيدة الدينية ، وانتهاجاً لسنة الرسول ﷺ ؛ إلا أن « أبا عبيدة » قد طور هذه التقاليد من خلال التوفيق بينها وبين ظروف القتال ؛ مما أكسب تلك التقاليد المرونة وجعلها متوافقة مع كل الظروف ومحققة للاهداف الاساسية التي حددتها العقيدة الدينية الاسلامية .

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر :

الخطر صفة ملازمة للحرب وهي طبيعة من طبائعها ولا يمكن فصلها عنها ؛ والشجاعة صفة مناقضة للخوف بحيث لا يمكن فهم إحدى الصفتين إلا من خلال فهم الاخرى . ونظراً لأن الصفتين نوعيتين فانه من الصعب قياسهما بالمقاييس المتعارف عليها ؛ وعلى الرغم من وضع « الروائز » الحديثة في علم النفس لمعرفة ما هو متوفر لدى الفرد من عوامل الخوف أو الشجاعة ؛ فانه لا زال من الصعب الوصول إلى تقويم صحيح ودقيق يمكن له الكشف عن مقدار الشجاعة المتوفرة

لدى الفرد أو نوعيتها ؛ لا سيما وأن أنواع الخوف متباينة (كالخوف من الظلمة أو الخوف من المجهول أو الخوف من الفراغ الخ ...) وقد يكون هناك خوف من نوع معين كالخوف من الظلمة في حين لا يكون لدى الفرد مخاوف اخرى مما يجعل عملية التقويم غير كاملة وغير دقيقة ؛ ومقابل ذلك فالشجاعة بدورها أنواع فهناك الشجاعة المعنوية (أو الأدبية) وهناك الشجاعة الجسدية (بمعنى التهور أحياناً) والمهم في الأمر هو أن تقويم الشجاعة يتطلب بالضرورة الكشف عن العوامل التي تساعد الفرد على مجابهة الموقف الخطر بردود فعل صحيحة .

لقد عالج الاختصاصيون موضوع الشجاعة في مواجهة الخطر خلال الحروب الحديثة ، وعكف علماء النفس وعلماء الاجتماع وخبراء الاعلام على بحث جميع الظواهر المرضية الناتجة عن الخوف – وبصورة خاصة في الحرب العالمية الثانية وفي الحرب الفييتنامية – كما عالجوا الفوارق الفردية والعوامل المختلفة التي تمنح المقاتل مزيداً من القدرة على مجابهة ظروف القتال الصعبة ؛ وظهر في النهاية أن أفضل علاج لدعم « الشجاعة في مواجهة الخطر » هو أن يثق المقاتلون بقدرهم ؛ وأنه اذا كان لهم نصيب في الحياة فلن يصيبهم مكروه . هذا إلى جانب « تزيين أهداف الحرب » وتجميل القتل في سبيل الواجب ؛ ولم تحقق جميع البحوث والدراسات أكثر من دعم (القدرية) التي جاء بها الاسلام قبل ١٣ قرناً من الزمن ؛ ولم تتمكن كل الجهود من انتاج فكرة تزيد على ما بشر به

الاسلام المجاهدين في سبيل الله ؛ وهي بشرى احدى الحسنيين (الشهادة أو النصر) .

كان « أبو عبيدة بن الجراح » في طليعة المسلمين ايماناً وصبراً واحتساباً في سبيل الله ؛ وكان في مقدمة المجاهدين معرفة وفقهاً وادراكاً لما تضمنه الاسلام . وقد برهنت سيرة حياته كلها على أنه ما أراد في عمل من أعماله غير الآخرة ؛ وغير الحصول على رضاء الله والاخلاص في طاعته ؛ فليس غريباً أن لا يخشى مخلوقاً – حيث توفرت له بذلك الشجاعة الأدبية (أو المعنوية) – وأن لا يخشى شيئا – فتوفرت له الشجاعة الجسدية التي ساعدته على احتمال كره القتال؛ وعدم الخوف من كل ما تحمله الحروب من أخطار . وتجمعت له الشجاعة الأدبية والشجاعة الجسدية . فكان نموذج القائد الشجاع ؛ وتوفرت له الكفاءة القيادية فكان نموذج القائد الناجح .

ويتأثر عامل الشجاعة تأثراً كبيراً بالجهد البدني المبذول ؛ وبظروف القتال الصعبة ؛ وكانت حروب المسلمين عامة عبارة عن مسيرات طويلة وشاقة في ظروف صعبة ؛ كما كانت معاركهم قاسية وصعبة أيضاً لا سيما وأنها كانت تتم كلها في إطار من عدم التكافؤ . ورغم ذلك كله فقد قاد « أبو عبيدة » جيش المسلمين من نصر إلى نصر ؛ ولم يظهر أثر التعب أو نتيجة الجهد المبذول على أي عمل من الاعمال ؛

حتى كأن من يقرأ سيرة الفتوحات يحسبها للوهلة الاولى أنها مجرد معارك حالفها النصر ؛ وتضيع تحت أعلام النصر كل الجهود المبذولة وكل التضحيات التي قدمت ثمناً للنصر . وقد يكون من السهل تصور مسيرة القوات من عمق الجزيرة العربية حتى أقصى حدود بلاد الشام ، ولكن مجرد محاولة التفكير بمتابعة خطط التحرك ، وتصور الوسائط المستخدمة لتنفيذ الأعمال القتالية ، ثم مقارنة موازين القوى ؛ كل ذلك هو أمر كاف لتكوين قناعة بما كان عليه « أبو عبيدة » ومعه جند المسلمين من الشجاعة التي لا يمكن قياسها حتى بأحدث « الروائز » والمقاييس .

لقد كان « أبو عبيدة » ومعه قادة المسلمين ومقاتليهم يستمدون من إيمانهم العميق كل فضائل الشجاعة ؛ وكانت قوة هذه الشجاعة أشد من كل العقبات والصعاب ؛ حتى كان المسلمون يجابهون الخطر (وكأنهم يلعبون) . وليس من الغريب بعد ذلك أن يخضع النصر لقادة من « أمثال أبي عبيدة » وأن ينقاد الفوز والنجاح لجند من نوعية جند المسلمين .

وتبرز فضيلة (الشجاعة في مواجهة الخطر) مرة أخرى قضية انتصار النوعية على الكمية ؛ وهي قضية برهنت كل الحروب الحديثة على صحتها ؛ فليست الحروب كلها قضية امكانات ووسائط وقوى ؛ وإنما هي قضية (نوعية ممتازة)

بالدرجة الأولى ؛ وقضية (فضائل حربية) قبل كل شيء [1] .

٥ ـ القرارات الصحيحة :

يصعب انتقاء موقف معين ؛ أو قرار محدد ؛ للبرهان على أن جميع قرارات « أبي عبيدة بن الجراح » كانت صحيحة؛ وذلك لأن النصر كان حليفه دائماً؛ وإذا كانت نتائج القرارات هي البرهان الدقيق على خطأ القرارات أو صحتها ؛

---

(١) لقد أوجز (ابن خلدون) العالم العربي ـ ومؤسس علم الاجتماع ـ عوامل النصر فقال « لا وثوق في الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة والعديد ؛ وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق ؛ وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها ؛ وكمال الاسلحة واستجادتها ؛ وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ؛ ومنه صدق القتال ؛ وما جرى مجرى ذلك من أمور خفية وهي إما من خداع البشر وحيلهم في الارجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل ؛ وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك ؛ وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيثلمون إلى النجاة وأمثال ذلك ؛ وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أمور سماوية لا قدرة للبشر على إكتسابها تلقى في القلوب ؛ فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة الخ..» (مقدمة ابن خلدون ـ تصحيح الهوريني ـ ص ١٣٥ ـ فصل ولا وثوق في الحرب بالظفر) .

فقد كانت نتائج قرارات أبي عبيدة كلها ناجحة ومحققة لغاية السلم وهدف الحرب . ومن هنا تأتي صعوبة الانتقاء .

لقد كان أبو عبيدة « **مكيثاً** » والحرب لا يصلح لها إلا « **المكيث** » المتزن ؛ الذي لا يبحث عن النصر السهل وانما الذي يبحث عن النصر المضمون ؛ وليس ذلك فحسب وانما النصر الذي يحقق الحسم في الحرب ، وكانت حروب « أبو عبيدة » ومعاركه كلها حاسمة .

وفن القيادة هو فن اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب وتنفيذه بالشكل المناسب ؛ ولقد باتت عملية اتخاذ القرار معروفة ؛ ولكنها لم تكن كذلك – يقيناً – في عهد الفتوح ؛ ربما بصيغتها العلمية ؛ لكن أسلوب « أبا عبيدة » يبرهن على ممارستها عملياً . واذا كان من الصعب انتقاء موقف معين أو قرار محدد ؛ للبرهان على صحة قرارات « أبو عبيدة » جميعها . فانه ليس من الصعب اختيار نموذج معين وتعميمه على بقية المواقف ؛ ذلك لأن أسلوب « أبو عبيدة » في هذا المجال كان متشابهاً وواحداً ؛ وإن هذا التشابه في أسلوب العمل انما هو برهان في حد ذاته على الطابع الشخصي الذي ميز أعمال « أبو عبيدة » وهو أيضاً برهان على أن هذا الاسلوب لم يكن عفوياً لمجابهة موقف طارىء وإنما كان أسلوباً مبرمجاً عملياً وعلمياً بحسب الطرائق الحديثة في أساليب القيادة .

يمكن هنا العودة من جديد إلى معركة فتح « حمص » حيث تقدم « أبو عبيدة » بعد أن دفع مقدمة لقواته ، وبعد أن

جمع المعلومات الكافية عن الموقف ؛ وكان أول عمل مارسه هو تنظيم حصار المدينة ؛ ثم ارسال مفارز الاستطلاع في كل اتجاه ، مع ارسال قوات من الفرسان حتى أفق المعركة البعيد بهدف عزل « حمص » عن كل ما يحيط بها ؛ وممارسة الضغوط الاقتصادية والعسكرية على الحامية المدافعة عن المدينة . وانصرف بعد ذلك « أبو عبيدة » إلى معالجة الموقف بهدوء ودون (التهديد) بتدخل خارجي يحبط جهوده ؛ أو ينال غرة من قوات المسلمين . وقد اشتملت معالجة الموقف على جمع المعلومات عن قوات العدو ودراسة الموقف والطبيعة الجغرافية وقوة التحصينات وكل ما يتعلق بتحقيق الهدف وبذلك اكتملت عند « أبي عبيدة » عناصر (تقدير الموقف) ؛ وأصبح بالامكان (اتخاذ القرار المناسب) وقد اتخذ أبو عبيدة « قراره » بتنفيذ مناورة خداعية على مستوى العمليات . واختار الوقت الصحيح ونفذ مناورته ؛ وأمكن تحقيق النجاح الرائع بعد أن طال الانتظار ؛ وقد كان النجاح رائعاً لأنه حقق جميع المعطيات التي تمت المعركة من أجلها ؛ ولأنه نفذ معركته بجهد مقبول .

كانت عملية « فتح حمص » مشابهة في أسلوبها وطرائقها لما سبق تنفيذه أثناء فتح « دمشق » وهي مشابهة أيضاً لما تم تنفيذه بعد ذلك أثناء فتح « اللاذقية » بصورة خاصة . وهذا في حد ذاته برهان حاسم على أن (عمليات الفتوح بكاملها) لم تكن مرتجلة تعتمد على ردود الفعل وعلى الصدفة الطارئة أو (ضربة الحظ) وانما كانت نتاج تخطيط دقيق ومحكم ؛ وثمرة جهد دؤوب ومستمر .

ويمثل « أبو عبيدة بن الجراح » في الحالات جميعها نموذج القائد المبدع في تفكيره وأسلوبه القيادي ؛ واذا كان من الصعب في فترة الفتوحات التعبير عن ذلك بأسلوب علمي ؛ فقد طبق أسلوبه عملياً ؛ وتكونت بنتيجة ذلك مدرسة تضع البحث والتفكير أساساً لكل عمل قتالي ناجح ؛ ولقد تعرض « أبو عبيدة » أثناء ممارسته لقيادته إلى بعض « مآزق الحرب » ولكن هذه المآزق لم تخرجه عن طبيعته ؛ ولم تتمكن من إرغامه على تغيير أسلوبه ؛ ويظهر ذلك أثناء هجوم الروم على حمص ؛ فقد اقترح قسم كبير من القادة وفي طليعتهم « خالد بنَ الوليد » القيام بهجوم مضاد مباشر لتدمير قوات الروم ؛ لكن « أبو عبيدة » رفض الاقتراحات التي تخالف أساليبه القتالية ؛ فعمل على « تطويق المأزق » وأخبر الخليفة ؛ وتابع دراسة الموقف ؛ إلى أن وجد الفرصة المناسبة لاتخاذ القرار ووضعه موضع التنفيذ ؛ فكان النصر الحاسم .

لم يكن « أبا عبيدة بن الجراح » بعد ذلك مقلداً وإنما كان قائداً مبدعاً ؛ فقد وغل الايمان في قلبه وفهم الاسلام بعقله ؛ واستوعب الطرائق والاساليب التي كونت نواة العقيدة القتالية الاسلامية بحسب ما وضعها الرسول القائد ﷺ ؛ ثم انصرف لقيادة الحرب . مطبقاً من المبادىء ما هو مناسب لكل موقف ، مستخدماً من الأساليب ما هو مناسب لكل مأزق من مآزق الحرب ؛ كل ذلك وجهاً لما يراه وبحسب طريقته الشخصية ؛ فطور من خلال « العامل الشخصي » المبادىء والأسس بحيث

ظهرت بعض تلك المبادىء والأسس وكأنها جديدة ؛ وهي ليست كذلك . وتبرز من خلال هذا النموذج تفاعل العوامل الثلاثة التي حققت للمسلمين انتصاراتهم الخالدة ؛ (عقيدة قتالية متكاملة ومغايرة لكل ما سبقها وتشكل ظلالاً متقدمة إلى أكثر من عشرة قرون بحيث كان من المحال على الجيوش المعادية فهمها أو إدراكها ؛ ثم قيادة على درجة عالية من الكفاءة بحيث كانت قادرة على التكيف مع مآزق الحرب وإيجاد الحلول الصحيحة لها . كل ذلك إلى جانب جيش من المجاهدين في سبيل الله ما عرف التاريخ له مثيلا) .

٦ ـ حماية المرؤوسين :

لم يكن « أبو عبيدة بن الجراح » وهو يلتزم في كل مواقفه بمبدأ « حماية المرؤوسين » الا نموذجاً للقائد العربي المسلم الملتزم حتى أبعد الحدود بعقيدة الاسلام الدينية وعقيدتهم القتالية ؛ فالحرص على المقاتل المسلم انما هو حرص على أخ عزيز ؛ يحمل أعباء الرسالة ويضطلع بأعباء الواجب ؛ وعلى هذا لم يكن حرص « أبو عبيدة » على تطبيق مبدأ « حماية المرؤوسين » هو حرص انفعالي ؛ أو بحثاً عن مغنم سياسي (لتكوين قاعدة جماهيرية بحسب التعبير الحديث) وإنما من أجل ضمان الظروف المناسبة لتنفيذ الواجب والابقاء على قوة المسلمين . (ولقد آخت العقيدة الدينية الاسلامية بين المسلمين جميعاً ؛ وجاء أسلوب « أبو عبيدة » القيادي تعبيراً عن هذه

الاخوة الصحيحة والصادقة) .

لقد تطلبت العقيدة القتالية الاسلامية تحويل شعار الاخوة الدينية إلى أسلوب عملي يمثل أخوة السلاح ؛ فكانت مبادىء الحرب كلها محققة لهذا الهدف الكبير ؛ فلم تكن مبادىء (الاهتمام بالشؤون الادارية ؛ والعنف في القضاء على أعداء المسلمين ؛ والقرارات الصحيحة) الا تعبيراً عملياً يحقق مبدأ حماية المرؤوسين وفق قاعدة « الأخوة » وليس ذلك فحسب بل إن الأسس الاستراتيجية للعقيدة القتالية قد هدفت تحقيق مبدأ « حماية المرؤوسين » ولم تكن « استراتيجية الهجوم غير المباشر » أكثر من ترجمة عملية لتحقيق الهدف ضمن حدود « حماية المرؤوسين » .

لقد كان مبدأ « حماية المرؤو سين » في طليعة المبادىء التي أظهرت « فضائل جيوش العرب المسلمين » ولم تكن هذه الفضائل من الشواهد المميزة للمستويات القيادية ؛ وانما كانت قاسماً مشتركاً بين القوات جميعها (وليست عملية حماية كل مسلم لأخيه في الحرب ؛ على ما هو معروف ؛ وفداء كل مقاتل لأخيه بنفسه سوى التعبير العملي لصدق الاخوة ، وسوى تعميم لمبدأ حماية المرؤوسين على جميع مستويات المقاتلين وقياداتهم) .

وتظهر هذه الاخوة بكل أبعادها في الرغبة المشتركة لحمل أعباء القتال بصورة متعادلة ومتساوية ؛ وليس ذلك فحسب ؛ وانما الابتعاد عن التمايز في أي موقف ؛ ولعل تصميم « أبي

عبيدة » على البقاء مع قواته عندما انتشر الطاعون ؛ ورفض اقتراح أمير المؤمنين « عمر » بمغادرة منطقة الوباء والرد على أمير المؤمنين بعبارة (إني من جند المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ؛ فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه) . ولم يكن « أبو عبيدة » يجهل يقيناً أن خروجه من منطقة الوباء قد يكون أكثر نفعاً للمسلمين من بقائه فيها مع احتمال تعرضه لخطر العدوى . ولكنه كان يرغب يقيناً في أن يشارك جند المسلمين مصابهم طالما أنه لا يستطيع دفع الوباء عنهم ؛ حتى انه كان ينادي الله عز وجل بقوله (اللهم نصيبك في آل عبيدة) ويقصد أن ينزل بآل « أبي عبيدة » ما نزل بالمسلمين ؛ فكان مبدأ « حماية المرؤوسين » ينطلق من هذا الشعور الصادق ومن هذا الايمان العميق .

لقد كان قادة العرب المسلمين سواء في التزامهم بمبدأ « حماية المرؤوسين » ، ولكن « أبو عبيدة » رغم ذلك يبقى رائداً في هذا المجال من حيث ترجمة مضمون المبدأ النظري إلى واقع عملي ؛ ومن حيث اتباع كل الطرق وتطوير كل الاساليب التي يمكن لها تحقيق هذا المبدأ . وكان رائداً قبل كل شيء من حيث اقامة هذا المبدأ على أساس (الاخوة في الدين) وعلى أساس (أخوة السلاح) لتنفيذ الواجب المشترك .

ب ـ أبو عبيدة وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال :

كان نداء « يا خيل الله اركبي » عند المسلمين يشبه نداء « إلى السلاح » في الجيوش الحديثة ؛ ذلك أن قوة الخيل أو قوة الفرسان كانت تمثل قوة الصدمة في جيوش العرب المسلمين ؛ وكانت هذه القوة هي المسؤولة عن مجابهة كل مباغتة محتملة ؛ وكان يتم العمل لمجابهة المباغتة على أساس تدخل قوة الحرس ، فاذا عجزت هذه القوة عن مجابهة الخطر ، استنفرت قوات الفرسان وتم دفعها إلى المعركة ريثما يتم تنظيم بقية القوات بعيداً عن كل خطر وبذلك يتم تطويق « المأزق » . وقد تردد في مرات كثيرة أثناء مسيرة الفتوح أن قوات المسلمين (كانت لا تبيت ولا تصحو الا على تعبئة) وبذلك كانت في حالة استعداد دائم للقتال . وقد حاول الروم في مرات عديدة مباغتة قوات « أبي عبيدة بن الجراح » ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من إصابة غرّة المسلمين ـ أو مباغتتهم . ويتعلق الاستعداد الدائم للقتال بفضائل المقاتلين الحربية أكثر مما يتعلق بكفاءة القيادة ؛

فالقيادة تضع كل الاجراءات ؛ وتتخذ كل التدابير لتحرك القوات وتوقفها وتحديد واجباتها في كل مرحلة ؛ ولكن يبقى التنفيذ متعلقاً بفضائل الجنود وروحهم المعنوية وايمانهم بالهدف وحماستهم للقتل والقتال . وقد برهنت مسيرة أعمال الفتوح على أن « أبا عبيدة بن الجراح » قد حرص في كل مراحل القتال على توجيه المقاتلين وقيادتهم بكفاءة عالية ؛ وبرهنت مسيرة أعمال الفتوح أيضاً أن الفضائل الحربية في وسط المقاتلين المسلمين لم تكن دون مستوى كفاءة قيادتهم ؛ ومن هنا تظهر الاستجابة الكاملة لدى المجاهدين لما كان يطلب اليهم تنفيذه .

ما كانت مسيرة الفتوح مجرد رحلة عبر المفاوز والصحاري ، ولا كانت حتى مجرد اختراق للسهول والجبال ؛ وإنما كانت أيضاً أعمالاً قتالية يتصل فيها الليل بالنهار ، وتختلط فيها الاعمال الدفاعية وعمليات الحصار بالأعمال الهجومية وعمليات الاقتحام . مع احتمال الاشتباك في كل وقت وفي كل منطقة . وبذلك كان الجهد المبذول يتجاوز الحدود القصوى لكل ما هو متوقع ؛ ولكل ما هو معروف ؛ وقد يكون من السهل الجلوس بهدوء وفي مناخ تتوفر فيه كل شروط الراحة الجسدية والنفسية والتحدث عن مشاق القتال في فترة الفتح ، وقياس المواقع والمسافات بمقاييس الخرائط ؛ ولكن تقويم « درجة الاستعداد القتالي » تتطلب في الواقع ما هو أكثر من ذلك ؛

انها تتطلب وببساطة ، تجربة اختراق الصحراء العربية تحت وهج الشمس اللاهبة ؛ وفوق الرمال الحارقة ؛ بمثل ما كانت عليه الوسائط المتوفرة ثم تجربة زج القوات بعد التحرك ؛ واتخاذ تدابير الحيطة والوقاية ؛ وتصور الجهد المبذول لخوض القتال والاشتباك في الحرب . كل ذلك مع ما كان عليه موقف قوات المسلمين من ضعف عددي يجعل الجهد المبذول مرتفعاً حتى حدوده القصوى بسبب توزعه على أعداد قليلة . وعلاوة على ذلك كله ؛ فقد كانت قوات المسلمين في حالة إعادة تنظيم مستمر حتى تستطيع تنفيذ الاعمال المختلفة ، وقد لا تكون هناك حاجة لوصف ما تتطلبه هذه الحالة من جهد إضافي ، يتحمله جند المسلمين بثبات رائع وتصميم كبير . وكان « أبو عبيدة » ومعه كل المجاهدين في سبيل الله ؛ قد غادروا جزيرتهم وهم يعرفون أن أمامهم تحديات لا حدود لها ؛ فكان خروجهم في حد ذاته انما هو برهان على استعدادهم الدائم للقتال ؛ وكانت جهودهم المبذولة برهان على أنهم كانوا فوق التحديات كلها ، ما هو متوقع منها وما هو غير متوقع ؛ وبذلك استطاعوا المحافظة على استعدادهم الدائم للقتال ؛ رغم كل ظروف القتال الصعبة ورغم كل الاشتباكات الشاقة ؛ ورغم كل ما كان يبذله العدو من جهد وما يضعه من مخططات لاضعاف ارادة القتال عند المجاهدين .

٢ – الروح المعنوية العالية :

لم يكن باستطاعة المجاهدين تحمل ما تحملوه أثناء عمليات الفتوح لو لم يكن رصيدهم من الروح المعنوية العالية كبيراً إلى درجة لا يمكن تصورها . وقد أعطت الابحاث والدراسات الحديثة للروح المعنوية قوة مجهولة يرمز لها بالقوة « س » ولكن القرآن الكريم حدد مقدار هذه القوة بقوله تعالى (إنْ يكنْ مِنْكُم عِشرونَ صابِرُونَ يَغلبوا مائتَين ،وإنْ يَكنْ منكُم مائةٌ يَغلِبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون)[1] وبذلك تكون القوة (س) هي قوة الجيش العددية مرفوعة إلى القوة عشرة . بمعنى أن باستطاعة المجاهدين في سبيل الله – الصابرون – مجابهة قوات متفوقة بعشرة اضعاف والانتصار عليهم ؛ وقد كان ميزان القوى في كل معارك المسلمين لا يتجاوز هذا المعدل الا في مرات قليلة . وحتى في مثل هذه الحالات فقد كانت قوة المسلمين تجابه خصومها بأسلوب الحرب التشتيتية بحيث لم يكن ميزان القوى يتجاوز على الاغلب معدل واحد إلى عشرة في غير مصلحة المسلمين ؛ ورغم ذلك فقد كان الانتصار حليفاً للمسلمين في معاركهم الحاسمة كلها تقريباً . وقد يكون من المناسب هنا تحليل عوامل قوة « س » في جيش « أبي عبيدة بن الجراح » .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنفال .

لقد أدى التحليل العلمي للعوامل المؤثرة بالروح المعنوية إلى اكتشاف مجموعة غير محدودة من تلك العوامل ؛ منها — أو في طليعتها — الايمان بعدالة القضية التي يحارب المقاتل من أجلها فيقاتل ويقتل أو ينتصر ؛ ومنها أيضاً الثقة بالقائد ؛ وليس بكفاءته القيادية فحسب وانما بفضائله الحربية وبالتزامه بالقضية التي يقاتل من أجلها ؛ وكذلك الثقة بما هو معروف تحت اسم « اخوة السلاح » أو « روح القطعة » ويضاف إلى ذلك ولو بدرجة أقل ما تحققه الحرب من ضمانات للفرد وأسرته من مميزات معنوية ومادية .

ضمنت العقيدة الدينية الاسلامية أكثر هذه العوامل أهمية ؛ فقد ضمنت تحديد هدف الحرب وهو نشر الاسلام ؛ وهو هدف نبيل مَلَكَ على المقاتلين عقولهم وقلوبهم ؛ ودفعهم إلى الحرب لقاء احدى الحسنيين (ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) . وفي الوقت ذاته فقد كانت ثقة المجاهدين كبيرة وغير محدودة بكفاءة « أبي عبيدة » وبفضائله ؛ بل وبفضائله أكثر من كفاءته ، فكان ذلك حافزاً معنوياً كبيراً ؛ ذلك أن هذا القائد لم يكن يبحث في حروبه على الدنيا ؛ وإنما كان يريد الآخرة ؛ فكان قدوة رائعة لجيشه ؛ بحيث لم تظهر ولو حادثة واحدة تشير إلى وجود نوع من القصور أو التقصير ؛ أو البحث عن الدنيا ؛ فكان لذلك دوره الحاسم في الاقبال على الجهاد بحماسة لا نظير لها . وكانت ثقة المجاهدين بعضهم ببعض كبيرة أيضاً ؛ فكانوا يندفعون ليحمي بعضهم بعضاً ؛

وكانوا يتسابقون إلى اداء الواجب طلباً للشهادة ؛ ويأتي بعد ذلك اهتمام « أبي عبيدة » أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنهما بمتطلبات الجنود وتأمين احتياجاتهم ورعاية عائلات المجاهدين مما أزال كل خوف في نفوس المجاهدين يتعلق بالقلق تجاه أسرهم ؛ فكان لذلك أيضاً دوره في دعم الروح المعنوية للمجاهدين .

وكان « أبو عبيدة » يؤمن أن قوة جيش المسلمين هي في (روحه المعنوية العالية) وأن هذه الروح المعنوية تعتمد على (فضائل العقيدة الاسلامية) وهذا ما يفسر صلابته في تأديب « المنحرفين » ممن تساهلوا فشربوا الخمر مثلاً . وكانت الاجراءات الرادعة — وهي العزل — كافية لتحقيق الهدف المزدوج . الأول عقاب الآثمين والثاني صيانة الروح المعنوية للمجاهدين والمحافظة على فضائل جيش المسلمين . وتأتي بعد ذلك المشاركة الفعلية للقائد « أبي عبيدة » في الأمور الحياتية اليومية وشؤون المجاهدين العامة والخاصة ، لتعزز الروح المعنوية ولتعطيها مضامينها العملية وبراهينها الواقعية وبذلك اجتمعت كل العوامل المكونة « للروح المعنوية العالية » في جيش فتح الشام .

٣ — الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب :

يرتبط مبدأ الكفاءة البدنية العالية ؛ والقدرة على تحمل

الصعاب بالمبدأ السابق والمتعلق بالروح المعنوية العالية ؛ كما يتعلق أيضاً بالاستعدادات السابقة وبدرجة التدريب ؛ وبمجموعة الفضائل الحربية وفي مقدمتها الصبر على المكاره ؛ وقد ضمنت « التقنيات الحديثة للجيوش نوعاً من المساعدات للتغلب على عوامل اختلاف الاحوال الجوية ؛ واختلاف البيئة الجغرافية بهدف مساعدة المقاتل على التكيف مع الوسط الذي يعمل فيه ؛ كما ضمنت الوسائط الحديثة أيضاً ما هو ضروري لتخفيف الجهد المبذول في الحرب . سواء كان ذلك قبل الحرب أو أثناء الاشتباك في المعارك ؛ أو حتى في مرحلة استثمار النصر وتطوير الأعمال القتالية ؛ لكن ذلك كله – أو حتى بعضه – لم يكن متوفراً في عصر الفتوحات . فكانت الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب هي الوسيلة الوحيدة الممكنة للتغلب على عوامل اختلاف البيئة وعلى صعوبات الوسط المحيط (وسط العمليات أو مسرح الاشتباك) بالاضافة إلى صعوبات القتال ذاتها والتي كانت تعتمد على الجهد العضلي والقوة الجسدية قبل كل شيء .

كان الانسان العربي بطبيعته صلباً ؛ قاسياً ؛ لديه قدرة كبيرة على تحمل شظف العيش ؛ وبؤس الحياة في الصحاري الشاسعة ؛ ولكن توفر تلك القدرة وحدها لا يضمن تحقيق مبدأ (الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب في الحرب) ذلك أن المجهود البدني في الحرب هو غير المجهود البدني الطوعي الذي يتم تسخيره لشؤون الحياة العادية ؛ كما أن

المجهود البدني في الحرب يتميز باستمراره وتعاظمه لاسيما بالنسبة لحرب من نوع تلك التي حدثت في مسيرة الفتوح عامة – وفتح الشام منها بصورة خاصة – وقد يكون من البدهي توقع انعكاس الجهد البدني المبذول على الروح المعنوية مما يؤدي إلى انخفاض الحوافز القتالية ؛ ولكن ما حدث – بحسب كل الشواهد المتوفرة ، يبرهن على النقيض فقد كانت الروح المعنوية العالية هي التي تمتص النتائج السلبية للجهد المبذول ؛ وتدفع المجاهدين لبذل مزيد من الجهد .

لقد ذكرت كثير من المصادر التاريخية حال المجاهدين بجملة (**كانوا أساداً في الحرب ورهباناً في الليل ؛ يدوون بالصلاة والدعاء كدوي النحل ؛ لا يفضل من مضى على من بقي الا بفضل الشهادة**) وكان انصراف المجاهدين في الليل إلى العبادة والصلاة هو الذي يعوض لهم ما بذلوه من جهد ؛ وهو الذي يحفظ للروح المعنوية قوتها وصلابتها . وبذلك كان يزول كل جهد مبذول ؛ ويحتمل المجاهدون مزيداً من الجهد ومزيداً من القدرة على تحمل الصعاب .

لم يكن « أبو عبيدة بن الجراح » وهو يقود جيش الشام ؛ شاباً تضج في عروقه دماء الشباب وما كان جيش المسلمين كله من الجند الذين تفتحت لهم الحياة مع بداية الفتوح فكانت قوتهم الجسدية عوناً لهم ؛ وانما كان جيش الفتح هو جيش « جمهور المسلمين » بشبابهم وشيوخهم وبأطفالهم ونسائهم ؛ وكان لكل دوره في الفتح ؛ ولكل مهمته في الحرب . وكانوا

جميعاً يشتركون في بذل الجهد البدني الذي تتطلبه الحرب ؛ وما كان أحد يعتمد على غيره في حمل نصيبه من الجهد ؛ فكان الشيوخ يتقدمون الشباب قدر ما يستطيعون ؛ ويحملون من جهد الحرب فوق ما يطيقون . وما كان لهم قدرة على ذلك – يقيناً – لولا ذلك الحافز العميق – حافز الايمان بالهدف – وحافز تحقيق احدى الحسنيين « الشهادة والجنة أو البقاء مع النصر » وأمام هذه الارادة ، وأمام هذا التصميم ، كان يتضاءل كل جهد مبذول . فكان جيش الفتح بكامله نموذجاً أعلى (للكفاءة البدنية العالية وللقدرة على تحمل الصعاب) .

٤ – أبو عبيدة « وما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية » :

كان جيش الفتح بحكم تكوينه ؛ يضم المجاهدين الراغبين في الحرب دون تمييز بسبب فارق العمر أو بسبب الجنس ؛ وكان من واجب قائد العمليات تنظيم القدرات المختلفة وحشد كل الامكانات في الحرب . ولكن « أبو عبيدة » لم يقف كقائد للعمليات عند حدود التنظيم والحشد للقوات وانما تجاوز ذلك بحسب ما تظهره وثائق الصلح التي عقدها « أبو عبيدة » مع أهل البلاد ؛ حيث يتبين أن « أبا عبيدة » قد طور مفهوم ما هو معروف حديثاً باسم « الحرب الشعبية » وذلك عن طريق :

آ – تحقيق « غاية السلم » من خلال الكفاءة العالية في حسم الصراع المسلح والتمهيد لاقامة المجتمع الاسلامي والعمل بالتالي على حشد الطاقات الجديدة – ممن دخلوا في الاسلام حديثاً – وقد كانت هذه العملية مشابهة لتلك التي طبقها الرسول ﷺ منذ بدأ دعوته للاسلام ؛ حيث يتم اكتساب الاقاليم سلماً أو حرباً ونشر الاسلام فيها وتحميل أهلها أمانة نشر الاسلام وكان هذا في حد ذاته تطوير لمضمون الجهاد أو ما يعرف حديثاً بالحرب الشعبية .

ب – الافادة من سكان البلاد « وتحييدهم » اذا صح التعبير عن طريق اتفاقيات السلم ، وذلك لتحقيق هدف مزدوج الأول هو دعم القدرة الحربية وتأمين الحماية لها والثاني توفير المناخ للافادة من الطاقات المتوفرة كلها لتوجيهها نحو الجهاد وتحقيق المشاركة الكاملة للقوات بأعمال الفتوح بحيث لا يتم تبديد قسم من الجهد أو الطاقة البشرية .

ج – تنظيم القوات بحيث يقوم الجميع بأعباء الحرب (النساء للشؤون الادارية واسعاف الجرحى وأحياناً للقتال والأحداث للقيام بالأعباء التي تتناسب مع قدراتهم وإمكاناتهم).

ويظهر واضحاً أن واجب « أبو عبيدة » كقائد لمسرح من مسارح العمليات لم يكن محدداً بقيادة الأعمال القتالية فقط ، وانما كان يشمل إدارة البلاد التي يتم فتحها ، واقامة دعائم المجتمع الاسلامي ، وكان من الطبيعي أن يتبع ذلك

– وبصورة مباشرة – تطبيق مبدأ الجهاد (أو الحرب الشعبية).
وكان تطبيق هذا المبدأ يسمح لابناء البلاد التي تم فتحها العمل على قدم المساواة مع جنود جيش الفتح . وأصبح واجب الجيش في العمل لصهر المجتمع الجديد والمساعدة على عملية البناء (بتطبيق مبدأ الجهاد – أو الحرب الشعبية) هو من العوامل الرئيسية التي ساعدت على انتشار الاسلام وضمنت القوة للمجتمعات الجديدة ، وتبرز أهمية هذا المبدأ بصورة خاصة في الفتوحات التالية حيث أصبح أبناء البلاد حديثة العهد بالاسلام – كالشام والعراق – هم حملة مشاعل الاسلام إلى الاقاليم الجديدة التي لم يتم فتحها .

لقد تمت فتوح الشام وفتوح العراق في فترة متقاربة (١٢ – ١٧ هـ) وانصرف المسلمون لبناء المجتمع الجديد ؛ وأعقب ذلك « فتح مصر » وتحولت هذه الاقاليم بعد فترة قصيرة إلى قواعد قوية لاطلاق جيوش الجهاد اعتماداً على مبدأ الحرب الشعبية . ويعود الفضل في ذلك إلى قادة الفتوحات في هذه الاقاليم الذين تمكنوا من تطبيق مبدأ الجهاد (وتطوير مفهوم الحرب الشعبية) مما عزز امكانات المسلمين وساعد على زيادة قدرتهم البشرية وبذلك أمكن نشر راية الاسلام . ولقد أصبحت جيوش الفتح – بفضل مبدأ الجهاد – أو الحرب الشعبية – هي المدارس الحقيقية لتكوين المجتمعات الاسلامية الجديدة والتي تعمل على اعداد القوى الضرورية والطاقات الاساسية لازالة كل التناقضات التي يمكن لها الظهور – أو

يحتمل بروزها – في أخطر مراحل بناء المجتمع الاسلامي في جميع الاقطار . ويبقى « أبو عبيدة بن الجراح » رائداً من رواد تطبيق هذا المبدأ الذي يعتبر أساس التنظيم للمجتمع الاسلامي .

٥ – أبو عبيدة وحرية العمل :

يرغب قادة الجيوش في القديم والحديث تفضيل مبدأ (حرية العمل المطلقة) على مبدأ الالتزام بالقيم الأخلاقية أو القواعد القانونية أو حتى الأهداف السياسية ؛ ذلك أن حرية العمل المطلقة كثيراً ما تضمن لهم تحقيق الانتصارات الحاسمة (والحصول على أكاليل الغار) ببذل جهد معقول ؛ ولو كان ذلك على حساب الهدف السياسي ؛ وهذا ما حفز بعض الكتاب الغربيين والقادة العسكريين ورجال السياسة على تكوين جبهات متضادة – وأحياناً متناحرة ؛ فبينما ينطلق بعضهم للقول (ان نتائج الحرب أكثر خطورة من أن يتم تركها للقادة العسكريين) ينطلق الرد من قبل العسكريين ليتمثل بالمقولة التالية (إن الحرب أكثر خطورة من أن يتم تركها لرجال السياسة) وتمثل وجهات النظر المتناقضة في واقعها الرغبة في تحديد (حرية العمل العسكري) بحيث يتوافق وتحديد الهدف السياسي . ان مثل هذه المشكلة لم تكن موجودة في جيوش الفتح ؛ فقد كان القائد على جميع المستويات يمارس في حدود واجبه حق القائد السياسي والقائد العسكري في وقت واحد علاوة على دوره كقائد

ديني (إمامة الصلاة) . وكانت وحدة العمل السياسي والعسكري كافية لتقويم كل موقف من وجهة نظر السياسي أكثر مما تكون من وجهة نظر العسكري – وكانت القوة العسكرية هي الاداة التنفيذية لتحقيق الهدف السياسي وقد كان هذا الهدف هو رائد الجميع (نشر الاسلام) وعلى هذا فلم يكن هناك ثمة مجال للخلاف حول الهدف السياسي ؛ ولكن ثمة احتمال للاختلاف حول الطرائق العسكرية للتنفيذ من أجل الوصول إلى الهدف ؛ ولكن نظراً لتقسيم العمل بين قيادة استراتيجية (يمثلها أمير المؤمنين عمر – في عهد الفتوحات) وبين قيادات للعمليات على مختلف الجبهات ، فان احتمال الاختلاف لم يعد موجوداً . ولكن يبقى رغم ذلك كله قيود تلزم القائد بحدود معينة ، ولا تسمح له بممارسة حرية العمل المطلقة في المجال العسكري ، وأبرز هذه القيود هي عدم استخدام القوات المسلحة بما يتعارض مع تحقيق (غاية السلم) وهي بناء المجتمع الجديد . وقد اضطر « أبو عبيدة » في مرات كثيرة إلى تقنين استخدام وسيلة الاكراه – أو الوسيلة العسكرية – من أجل تحقيق (غاية السلم) .

لقد كانت حرية العمل في قيادة (أبي عبيدة) مقننة ومحددة ، ولكن هذا التحديد لم يكن مفروضاً وانما طوعياً لانسجامه مع مبادىء العقيدة الدينية الاسلامية والعقيدة القتالية المنبثقة عنها ؛ فكان استخدام القوة مقتصراً على جبهات القتال ، ومحدداً بالقضاء على القوة العسكرية المقاتلة لاعداء

المسلمين . ولقد كانت هذه الحدود هي التي أعطت حروب المسلمين طابعها (كحروب عادلة) هدفها تحقيق المثل وإقامة المجتمعات السليمة في بنيتها والصحيحة في تكوينها ؛ وقد يكون من الصعب بعد ذلك مقارنة مفهوم (حرية العمل) عند « أبي عبيدة » أو سواه من قادة المسلمين مع أي مفهوم مماثل لحرية العمل في جيوش العالم قديمها أو حديثها . ويعود السبب – على الأغلب – إلى التناقض القائم بين الهدف السياسي والهدف العسكري في الجيوش في حين أن هذا التناقض لم يكن له وجود في قيادة جيوش المسلمين ؛ وتبقى مبادىء العقيدة القتالية الاسلامية هي التي تفرض وجودها في ميادين الصراع المسلح في حين يمارس (العامل السياسي) دوره قبل المعركة وبعدها بل أثناء المعركة ذاتها . ويمكن من هذه الناحية اعتبار الفتوح الاسلامية نموذجاً أعلى لتقنين الحرب بقدر ما هي نموذجاً أعلى أيضاً للتمييز بين (حرية العمل العسكري) وحرية العمل السياسي ، بحيث لا يكون هناك ثمة تداخل بينهما ؛ وكان كثيراً ما يتم حسم الموقف عند ظهور مثل هذا التداخل لمصلحة حرية العمل السياسي نظراً لأنه الأساس في بناء المجتمع الاسلامي .

٦ – الانضباط والطاعة :

لعل مبدأ (الانضباط والطاعة) هو أبرز المبادىء التي

ميزت جيوش المسلمين ؛ فقد عرف عن تلك الجيوش انضباطها الطوعي وطاعتها المطلقة لقياداتها ؛ وترتبط ظاهرة الطاعة بالعقيدة الدينية الاسلامية على ما هو معروف ؛ ولكنها كانت في الوقت ذاته ذات خصائص مميزة يمكن استعراض بعض ملامحها :

آ – لقد كان الفارق الديني والاجتماعي (من حيث المكانة في نفوس المسلمين) صغيراً جداً بين (أبي عبيدة) وبين أمراء المؤمنين (أبو بكر ومن بعده عمر رضي الله عنهما) ورغم ذلك فقد قبل « أبو عبيدة » قيادة جيش من جيوش الفتح – لا أكثر – واذا كان ذلك تعظيماً لدور الجهاد في الاسلام واعطائه الأفضلية الاولى على كل مراتب السلطة في المجتمع الاسلامي ؛ فان ذلك في الوقت برهاناً على قبول (التكليف بالقيادة) بروح من الانضباط والطاعة . ويتأكد مفهوم هذا الانضباط والطاعة من خلال عودة « أبي عبيدة » في كثير من الأمور إلى أمير المؤمنين باعتباره المسؤول الاول والأخير – لا عن الفتوحات الاسلامية فحسب – وانما عن أمور الدولة كلها . وقد كان باستطاعة « أبي عبيدة » التصرف في كثير من الأمور لو أراد تجاوز حدود الانضباط والطاعة .

ب – **نظام الشورى** (والذي يشبه مؤتمرات حرب القادة ورؤساء هيئة أركانهم) وقد كان لهذا النظام دوره في تعزيز مفهوم الانضباط والطاعة ؛ إذ ان اتخاذ القرارات بصورة

اجماعية يجعل القادة ملتزمين بتنفيذها ومقتنعين بصحتها — حتى لو كان لهم رأي معارض — وكان هذا الانضباط ينعكس على أسلوب القيادة في جميع المستويات .

ج — **الأمثولة القيادية ؛** وقد كان « أبو عبيدة » مثله كمثل قادة المسلمين جميعهم ؛ ممن سبقوا إلى الاسلام ؛ وممن آمنوا به ؛ والتزموا بمبادئه . وكانوا مثالاً في (الفضائل الحربية) والخلق الكريم ؛ ولم يكن في تصرفاتهم أو سلوكهم ما يعيب قيادتهم ، ولهذا كان المقاتلون يندفعون في الحرب إيماناً منهم بهدف الحرب من جهة ؛ وتنفيذاً لتعليمات قياداتهم من جهة ؛ وثقة منهم بقيم قادتهم وفضائلهم .

د — **الكفاءة العالية للقادة ؛** إذ كان انتقال المجاهدين من نصر إلى نصر هو أمر كاف لاكتساب ثقة القادة وتبادل الثقة على كل المستويات . فكان لذلك دوره في الاندفاع لتنفيذ أوامر « أبي عبيدة » ومن المعروف أن الفشل أو الهزيمة كانتا مستبعدتين من وسط أعمال القادة ، وكان أي قصور أو تقصير كاف لعزل القائد ، كما أن التسلسل القيادي كان يسمح للقائد الثاني أو الثالث بممارسة دوره القيادي اذا ما ظهر خطأ في الاجراءات القيادية (على نحو ما حدث للقائد خالد ابن سعيد مثلاً) . وكان ذلك مما يدعم روح الانضباط ؛ لا سيما وانه لم يكن يسمح للقائد الثاني بممارسة دوره إلا بعد التأكد من الفشل ؛ وبذلك لم يكن هناك دور في المنافسة على ممارسة القيادة .

لقد ضمنت العقيدة الاسلامية (الدينية منها والقتالية) حصول القائد على الانضباط والطاعة ؛ ولكن هذا الانضباط الطوعي لم يكن مطلقاً وانما كان مقيداً بمجموعة من القيود .. مثل طاعة المخلوق في حدود طاعة الخالق فان تجاوزها وجب خلع طاعته والتمرد عليه ؛ والتمرد هنا ليس باعلان التمرد وانما برفع أمره إلى أمير المؤمنين المسؤول عن تكليفه ، كما أن تلك الطاعة مقيدة أيضاً بمجموعة فضائل القائد (كالكفاءة والعدل والقدرة) . وقد كان « أبو عبيدة بن الجراح » نموذجاً للانضباط والطاعة عند ممارسته لدوره القيادي في فتح الشام ، فكان طبيعياً أن يحصل على الانضباط والطاعة من مرؤوسيه والمقاتلين تحت قيادته . وقد كانت قيادته ميمونة الحظ وظافرة باستمرار وهذا مما دعم قواعد الانضباط والطاعة في جيش فتح الشام .



ج ـ ما بعد « أبو عبيدة بن الجراح »

مضى « أبو عبيدة » إلى لقاء ربه بعد إصابته في « طاعون عمواس » (عام ١٨ هـ) فاستخلف « معاذ بن جبل » على الشام ؛ ولكن « معاذ » لم يلبث حتى لحق « بأبي عبيدة » فاستخلف أمير المؤمنين « عمر » لولاية الشام « يزيد بن أبي سفيان » الذي كان يسمى « يزيد الخير » لفضائله وبلائه ولكنه لم يعمر فتوفي في سنة ١٨هـ = ٦٣٩م بعد إصابته بطاعون عمواس أيضاً . وكان « معاوية بن أبي سفيان » أميراً على خراج الشام ، فجمع له أمير المؤمنين « خراج الشام وحربها » وأصبح والياً على الشام كلها ؛ ولم يزل فيها حتى أصبح أميراً للمؤمنين ومؤسساً للدولة الأموية . واذا كانت بلاد الشام قد أصبحت عاصمة الدنيا أيام « معاوية » ومن جاء بعده من أمراء الامويين . الا أن الفضل في بناء المجتمع الاسلامي فيها انما يعود إلى سياسة الفتح التي طبقها « أبو عبيدة بن الجراح » فهو الذي قاد عمليات الفتح في شمال « دمشق » وهو الذي وصل بهجماته إلى قلب بلاد الروم ، وهو الذي نظم دعائم المجتمع الجديد .

مضى « أبو عبيدة » ووقف « معاذ بن جبل » لرثاء قائده وصاحبه فقال : (انكم فجعتم برجل ما أزعم والله اني رأيت من عباد الله قط أقل حقداً ، ولا أبر صدراً ، ولا أبعد غائلة ، ولا أشد حياء للعاقبة ، ولا أنصح للعامة منه ، فترحموا عليه) [1] .

---

(١) الاصابة ١٢/٤ — ١٣ .

يوجد قبر في غور الاردن ينسب إلى « أبي عبيدة » رمم ضريحه في عهد السلطان « بيبرس » كما جاء في الكتابة المنقوشة عليه ؛ وهي :

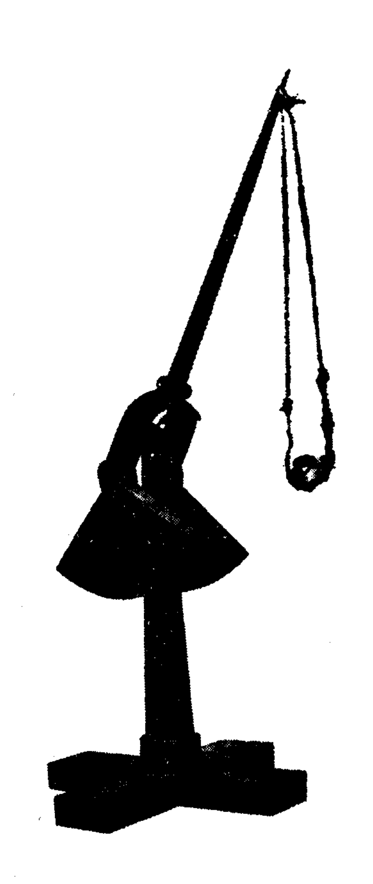
بسم الله الرحمن الرحيم

وأمر بانشاء هذه القبة المباركة على ضريح (أبي عبيدة بن الجراح) رضي الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ؛ ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين (« أبو الفتح» بيبرس بن عبد الله) قيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما وقفه عليه وحبسه من نصف مناصفات دير « معل تونين » من « حمص » من عمل « حصن اكراد » المحروس تحبيساً مؤبداً دائماً ، أثاب الله واقفه بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين ؛ وذلك بنظر الأمير الأعز الأجل الكبير نسله « ناصر الدين الجامنكلي الظاهري السعدي » نائب مملكة « عجلون » المحروسة في ذي الحجة سنة ستمائة وسبعة وخمسون) .



ملاحق الكتاب

١ ـ اتفاقية صلح « أبو عبيدة » مع أهل « دمشق » .
٢ ـ ما قيل في فتح « دمشق » .
٣ ـ إسلام « جبلة بن الأيهم » وارتداده .
٤ ـ رحيل « هرقل عن سوريا » .
٥ ـ لجوء « قبيلة اياد » إلى الروم « وإخراجهم » بتهديد من عمر » .



١ ـ اتفاقية صلح « أبو عبيدة » مع أهل دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

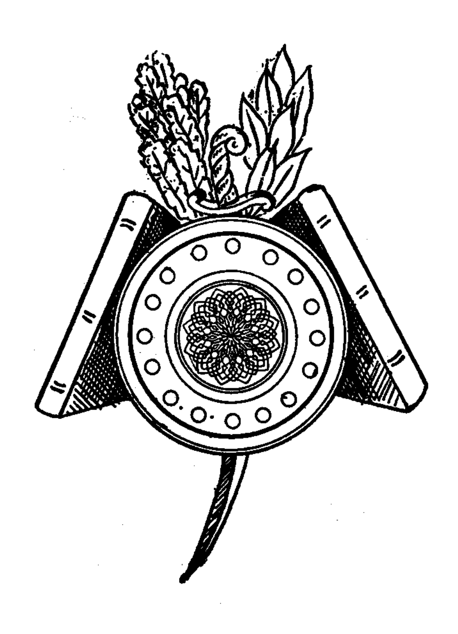
(هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ؛ ممن أقام « بدمشق » وأرضها وأرض « الشام » من الأعاجم انك حين قدمت إلى بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا ؛ وانا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا نحدث في مدينة « دمشق » ولا فيما حولها كنيسة ولا ديراً ولا قلامة ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين ؛ ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار وأن نوسع أبوابها للمارة وأبناء السبيل ؛ ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم على من غش المسلمين ؛ وعلى أن لا نضرب بنواقيسنا الا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا ؛ ولا نظهر الصليب عليها ؛ ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا ؛ ولا نخرج

باعوثاً ولا سعانين [1] ولا نرفع أصواتنا بموتانا ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين ؛ ولا نجاورهم بالخنازير ؛ ولا نبيع الخمور ؛ ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين ؛ ولا نرغب مسلماً في ديننا ؛ ولا ندعو إليه أحداً ؛ وعلى أن لا نتخذ شيئاً من الرقيق الذين جرت عليهم سهام المسلمين ؛ ولا نمنع أحداً من قرابتنا ان ارادوا الدخول في الاسلام ؛ وأن نلزم ديننا حيثما كنا . ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ؛ ولا في مراكبهم ؛ ولا نتكلم بكلامهم ولا نتسمى بأسمائهم . وأن نجز مقادم رؤوسنا ونفرق نواصينا ؛ ونشد الزنانير على أوساطنا ؛ وان لا ننقش في خواتيمنا بالعربية ؛ ولا نركب السروج ؛ ولا نتخذ شيئاً من السلاح ؛ ولا نجعله في بيوتنا ولا نتقلد السيوف ؛ وأن نوقر المسلمين في مجالسهم ؛ ونرشدهم الطريق ؛ ونقوم لهم من المجالس اذا أرادوها ؛ ولانطلع عليهم في منازلهم ؛ ولا نعلم أولادنا القرآن ؛ ولا نشارك أحداً من المسلمين ؛ الا أن يكون للمسلم أمر التجارة . وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد ؛ ونطعمه فيها ثلاثة

---

(١) الباعوث للنصارى – كالاستسقاء للمسلمين ؛ وهم اسم سرياني ؛ وقيل هو بالغين المعجمة والتاء فوقها نقطتان . والسعانين – بالسين المهملة – اسم عيد للنصارى يكون قبل عيدهم الكبير بأسبوع – وهو سرياني أيضاً قاله في النهاية . ويطلق عليه اليوم « عيد الشعانيين» .

أيام . وعلينا أن لا نشتم مسلماً ؛ ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده . ضمنا ذلك على أنفسنا وذرارينا وأرواحنا ومساكننا ؛ وان نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه ؛ فلا ذمة لنا وقد حل لك منا ما حل من أهل المعاندة والشقاق على ذلك ؛ أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا فأقرونا في بلادكم التي أورثكم الله اياها ؛ شهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى به شهيداً) [1] .



(١) تهذيب ابن عساكر ١٤٩/١ ـ ١٥٠ .

٢ ـ ما قيل في فتح « دمشق »

قال « القعقاع بن عمرو » في فتح دمشق [١] :

أقمنا على داري سليمان أشهراً
نجالد روما وما قد حملنا بصارم [٢]

قصصنا إلى الباب « العراقي » عنوة
فدان لنا مستسلماً كـل قائم [٣]

أقول وقد دارت رحانا بدارهم
أقيموا لهم حر الورى بالغلاصم .

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١٠٦/١ و ١٠٧ .

(٢) داري سليمان هما « دمشق » و « تدمر » لأنهما كانا دارين لسليمان عليه السلام — على ما يقال — ويبرهن ذلك على أن مدة الحصار قد زادت على الشهرين .

(٣) إشارة إلى اقتحام دمشق من الباب الشرقي عنوة — وقد سمي الباب الشرقي — بالباب العراقي لأنهم كانوا ينطلقون منه شرقاً إلى العراق .

فلما زأونا في « دمشق » نحورهم
و « تدمر » عضوا منهما بالأباهم .

وقال أبو بجيد « نافع بن الأسود » :

فلا تحسبني وابن أمي صلصلا
كقاسمة الباكين مزكية الحرب [1]
تركنا « دمشقاً » منهلاً بطريقنا
نحن اليها ما نحن من الكرب .
كأنك لم تشهد دمشقاً وحايلاً
ويوماً ببصرى حين فارط بني لهب .
فأنا واياهم سحاب بقفرة
تلحقها الأرواح بالصيب السكب .

إلى أن يقول ...

فسائل بنا سيطاس والروم حوله
غداة دمشق والحروب بها تجري [2]
ينبوك أنا في الحروب مصالب
تسيل اذا جاش الأعاجم بالثغر

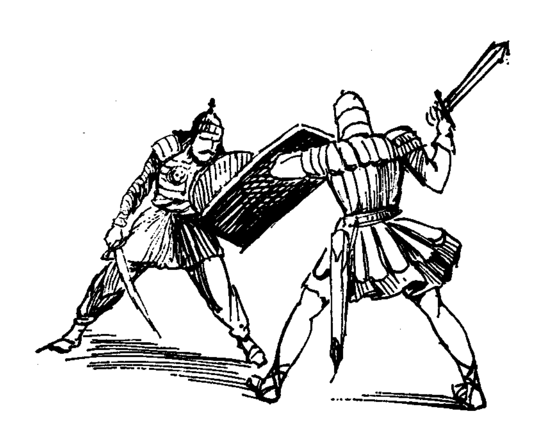
---

(١) أي لا تظنني أنني وابن أمي صلصلا ضعيفاً يقاسمون الجبناء البكاء عندما تذكو نار الحرب .

(٢) «سيطاس» هو قائد الروم يوم فتح «دمشق» .

بقوم تراهم في الدهـــور أعزة
لهم عرض ما بين الفرائص والوتر[1]

أبـــى الله الا أن عمراً بنــا هموا
قوائم حرب لا تلين ولا تجري[2] .



---

(١) الفرائص «جمع فريصة» وهي عصب الرقبة وشرايينها وأوردتها ؛ والوتر « جمع وترة » وهي عصبة تحت اللسان والمعنى أن لهم أعناق الأعداء يتصرفون بها كيف شاءوا .

(٢) يبرهن هذا البيت على أن فتح دمشق قد تم بولاية «عمر بن الخطاب» الذي شدد قبضته على الروم بحرب « لا تلين ولا تجري » .

٣ ـ إسلام جبلة بن الأيهم الغساني وارتداده

بعد فتح « بعلبك » أرسل « أبو عبيدة بن الجراح » قوة من الفرسان بقيادة « خالد بن الوليد » بمهمة فتح « حمص » كمقدمة للجيش . وبعد فترة من التوقف لإعادة التنظيم مضى « أبو عبيدة » في طريقه نحو مدينة « حمص » . وفي الطريق وصله « أسامة بن زيد الطائي » يحمل رسالة من الخليفة « عمر » وفيها : (... أما بعد ! فلا مرد لقضاء الله تعالى وقدره ؛ ومن كتب في اللوح المحفوظ كافراً فلا إيمان له ؛ وذلك أن « جبلة بن الأيهم الغساني » كان قدم علينا ببني عمه ؛ وسراة قومه ؛ فأنزلتهم وأحسنت اليهم وأسلموا على يديَّ ؛ وفرحت بإسلامهم ؛ إذ شد الله عضد الاسلام والمسلمين بهم ... ثم إنا سرنا إلى « مكة » نطلب الحج ؛ فطاف « جبلة بن الأيهم » بالبيت أسبوعاً ؛ فوطىء رجل من « فزارة » إزاره فأسقطه عن كتفه ؛ فالتفت إلى « الفزاري » وقال له : « ويلك كشفتني في حرم الله تعالى » فأجابه « الفزاري » : « والله ما تعمدتك » . فلطم « جبلة بن الأيهم » « الفزاري » لطمة هشَّم

بها أنفه ؛ وكسر ثناياه الأربع . فأقبل « الفزاري » إليّ مدعياً على جبلة ؛ فأمرت بإحضاره ؛ وقلت له : « ما حملك على أن لطمت أخاك في الاسلام وكسرت ثناياه الأربع وهشمت أنفه ؟ » فقال « جبلة » : « أنه وطىء إزاري برجله فحله ؛ ووالله لولا حرمة هذا البيت لقتلته » . فقلت له : « أقررت على نفسك ؛ فإما أن يعفو عنك ؛ وإما أن آخذ له منك القصاص » . فقال : « أيقتص وأنا ملك وهو من السوقة ؟ » قلت : « قد شملك وإياه الاسلام فما تفضله الا بالعافية » . فقال : « أتتركني إلى غد وتقتص مني ؟ » فقلت « للفزاري » : « أتتركه إلى غد ؟ » قال : نعم . فلما كان الليل ؛ ركب في بني عمه ؛ وتوجه إلى « الشام » يريد اللحاق « بالروم » وأرجو أن الله يظفرك به . فانزل على حمص ؛ ولا تنفذ عنها ؛ فان صالحك أهلها فصالحهم ؛ وإن أبوا فقاتلهم وابعث عيونك إلى « انطاكية » وكن على حذر من المتنصرة) . ووصلت قوات المسلمين إلى « حمص » وعقد حاكمها صلحاً مع « خالد بن الوليد » بهدف كسب الوقت والاستعداد للحرب . وعندما وصل « أبو عبيدة » ؛ انطلق « خالد » مع قوة من الفرسان للقيام بجولة في « ريف حمص » . وتوفرت المعلومات عند « أبي عبيدة » عن اتصال حاكم قنسرين « بهرقل » وطلب الدعم منه لقتال المسلمين ؛ وأن « هرقل » استجاب للطلب ؛ ووجه « جبلة بن الأيهم الغساني » في جموع العرب المتنصرة ؛ بالاضافة إلى توجيه قوات من عشرة آلاف مقاتل — وجهها

حاكم عمورية ــ وأخذ « أبو عبيدة » في الاستعداد لمجابهة ما قد يحدث من تطورات ؛ وبينما كان أحد قادة المسلمين – سعيد بن عامر – يبحث عن مولاه الذي ذهب يحتطب بعيداً عن البساتين والأشجار المثمرة ؛ تنفيذاً لأوامر « أبي عبيدة » . بوغت بمجموعة من الفرسان حملته إلى « جبلة بن الأيهم » وعندما اجتمع به سأله « جبلة » عن أحوال أقربائه وأهله في جيش المسلمين ؛ وسأله عن « حسان بن ثابت » . فأجابه « سعيد » إن آخر مرة التقى فيها « بحسان » كانت قبل خروجه مع جيش الفتح ؛ وأنه سمعه ينشد :

لله در عصابــة نادمتُهــم
يوماً بجلق في الزمان الأول .
يُغْشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل .
بيض الوجوه كريمــة أنسابهم
شُمُ الأنوف من الطراز الأول .
الملحقــين فقيرهم بغنيهــم
المشفقين على اليتيم الأرمــل .
أولاد جفنة حول قبر أبيهــم
قبر ابن مارية الكريم المفضل .

فقال له جبلة : « وهل حفظ لي هذه المكرمة » . وأهداه ثياباً وهدايا وطلب اليه نصح « خالد » و « أبي عبيدة » بعدم

مجابهة قواتهما له لأنه سيتوجه لدعم « صاحب قنسرين » .
وعاد « سعيد بن عامر » فأخبر « أبا عبيدة » بما توفر لديه من معلومات . فوجه أبو عبيدة قوة استطلاع من عشرة فرسان فقط بقيادة « خالد بن الوليد » ورافقهم « سعيد بن عامر » إلى المكان الذي علم أن « حاكم قنسرين » سيلتقي به بقوات « جبلة بن الأيهم » . ونصب « خالد » كميناً ؛ وعندما أقبل « حاكم قنسرين » اعتقله خالد وكلف به من يحرسه ؛ ولم تلبث قوات « جبلة » أن انقضت فأحاطت « بخالد » وقوة الكمين . وحاول « جبلة بن الأيهم » وحاكم « عمورية » انقاذ حاكم « قنسرين » وكان من المقربين إلى « هرقل » واستخدم « جبلة » أسلوب الترغيب والترهيب لاقناع « خالد » بالاستسلام له ؛ وانه من المحال عليه مجابهة « جبلة » وهو الذي قال فيه شاعر الرسول :

ان ابن جفنة من بقية معشر
لم تغذهم آباؤهم باللـــؤم .
يعطي الجزيل ولا يراه بأنـــه
إلا كبعض عطية المذموم .
لم ينسني بالشام إذ هو بارح
يوماً ولا متنصراً بالروم .
إن جئته يومـــاً تقر بمنـــزل
تسقي براحته من الخرطـــوم .

وعندما يئس « جبلة » ومعه حاكم « عمورية » من اتباع أسلوب الخداع والترهيب أو حتى الترغيب قرر القضاء على خالد ومجموعته في محاولة لانقاذ « حاكم قنسرين » . فكان « عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق » هو أول من جابه « جبلة بن الأيهم » ونجح « جبلة » في إصابة «عبد الرحمن» بجرح في عضده ؛ وخاف « خالد » أن يتمكنوا منه ؛ فأسرع إلى البطريق حاكم « قنسرين » وقتله . وبدأ اشتباك عنيف بين الطرفين ؛ ثم ظهر جيش « أبو عبيدة » في أحرج اللحظات وأصعبها ؛ وبعد أن أيقن « خالد » و « مجموعته أنهم من الهالكين . واستطاع « أبو عبيدة » أن يحقق المباغتة الكاملة . وبعد معركة قصيرة وحاسمة تمزق جيش «جبلة بن الأيهم» وجيش حاكم « عمورية » وأخذت قوات المسلمين في مطاردتهم . وعاد « جبلة » ببقية جيشه إلى « القسطنطينية » ؛ وأقام فيها ، ثم انتقل إلى « اليونان» مع قبيلته التي ذابت في بوتقة المجتمع اليوناني وانصهرت فيه .

٤ ـ رحيل « هرقل » عن سوريا

لما خرج « هرقل » من الرهاء ؛ واستتبع أهلها [١] ؛ قالوا : نحن هاهنا خير منا معك ؛ وأبوا أن يتبعوه ؛ وتفرقوا عنه وعن المسلمين . وكان أول من أنبح كلابها وأنفر — دجاجها [٢] « زياد بن حنظلة » وكان من الصحابة ، وكان مع « عمر بن مالك » ، مسانده ؛ وكان حليفاً « لبني عبد بن قُصي » وقبل ذلك ما قد خرج « هرقل » حتى « شمشاط » فلما نزل القوم « الرهاء » أدرب فنفذ نحو « القسطنطينية » ولحقه رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين ؛ فأفلت . فقال له : « أخبرني عن هؤلاء القوم » ؛ فقال : (أحدثك كأنك تنظر اليهم ؛ فرسان بالنهار ورهبان بالليل ؛ ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ؛ ولا يدخلون إلا بسلام ؛ يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه ؛ فقال : لئن كنت صدقتني ليرثُنّ ما تحت

(١) طلب إلى أهلها أن يتبعوه .

(٢) أنبح كلابها وأنفر دجاجها : كناية عن استنفار أهلها للقتال .

قدمي هاتين) وكان من عادة « هرقل » أنه كلما حج « بيت المقدس » فخلف « سورية » وظعن في أرض الروم التفت فقال : « عليك السلام يا سورية تسليم مودع لم يقض منك وطره ؛ وهو عائد » . فلما توجه « المسلمون » نحو «حمص» وعبر الماء ؛ فنزل « الرهاء » فلم يزل بها حتى طلع أهل الكوفة ؛ فتحت قنسرين ؛ وقتل ميناس ؛ فخنس عند ذلك إلى « شمشاط » حتى إذا فصل منها نحو الروم علا على شرف « مرتفع » ونظر نحو « سورية » وقال : عليك السلام يا سورية ؛ سلاماً لا اجتماع بعده ؛ ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً (وأخذ أهل الحصون التي بين « اسكندرية » و « طرسوس » معه ؛ لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين « انطاكية » و « بلاد الروم » وشعث الحصون ـ دمرها ـ فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً ؛ وربما كمن عندها الروم ؛ فأصابوا غرة المتخلفين ؛ فاحتاط المسلمون لذلك)[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٦٠٢ ـ ٦٠٣ وابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ٢/٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

٥ ـ لجوء قبيلة « إياد » إلى « الروم » واخراجهم « بتهديد من عمر »

كتب « الوليد بن عقبة » إلى أمير المؤمنين « عمر » رضي الله عنه ؛ يعلمه نزوح قبيلة « إياد بن نزار » إلى « الروم » والتجائهم اليهم ؛ فكتب « أمير المؤمنين عمر » إلى « ملك الروم » رسالة جاء فيها : (انه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ؛ فوالله لتخرجنه أو لننبذن إلى النصارى؛ ثم لنخرجنهم إليك) فأخرجهم ملك الروم ؛ فخرجوا فتم منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد ، وخنس بقيتهم ، فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم ؛ فكل إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة الآلاف ؛ وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من « بني تغلب » إلا الاسلام ؛ فقالوا له : أما من نُقّب على قومه في صلح « سعد » ومن كان قبله فأنتم وذاك . وأما من لم ينقُب عليه أحد ؛ ولم يُجْر ذلك لمن نقب فما سبيلك عليه ؟! فكتب فيهم إلى عمر ؛ فأجابه عمر : (إنما ذلك لجزيرة العرب لا يقبل منهم فيها الا الاسلام ؛ فدعهم ؛ على ألا يُنصروا وليداً ؛

واقبل منهم اذا أسلموا) فقبل منهم على ألا يُنَصّروا وليداً ، ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام ؛ فأعطى بعضهم ذلك ؛ فأخذوا به ، وأبى بعضهم إلا الجزاء ، فرضي منهم بما رضي من العِباد و « تنوخ » . ومن المعروف أن الرسول ﷺ كان قد عاهد وفدهم على ألا يُنَصِّروا وليداً ؛ فكان ذلك الشرط على الوفد ؛ وعلى من وَفَدهم « وأرسلهم » ولم يكن على غيرهم ، فلما كان زمان « عمر » قال مسلموهم : لا تُنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولكن أضعِفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم ؛ فيكون « جِزاء » فانهم يغضبون من ذكر الجزاء ؛ على ألا ينصروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم . فخرج وفدهم في ذلك إلى « عمر » فلما بعث « الوليد » اليه برؤوس النصارى وبديانيهم « زعماءهم ورجال الدين فيهم » قال لهم « عمر » : (أدوا الجزية ، فقالوا لعمر : أبلغنا مأمننا ، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم ؛ والله لتفضحنا من بين العرب ، فقال لهم : أنتم فضحتم أنفسكم ؛ وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية ؛ وتالله لتؤدونه وأنتم صغرة قمأة ؛ ولئن هربتم إلى الروم ؛ لأكتبن فيكم ؛ ثم لأسبينكم ، قالوا : فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء ؛ فقال : أما نحن فنسميه « جزاء » وسموه أنتم ما شئتم . فقال له « علي بن أبي طالب » : يا أمير المؤمنين : ألم يُضعف عليهم « سعد بن مالك » الصدقة ؟ ... قال : بلى ، وأصغى إليه ؛ فرضي به منهم جزاء ، فرجعوا على ذلك ؛

وكان في « بني تغلب » عز وامتناع ؛ ولا يزالون ينازعون « الوليد » فهم بهم « الوليد » وقال في ذلك :

إذا ما عَصَبْتُ الرأسَ مني بِمِشْوَذٍ
فَغَيّك مِنّي تَغلبَ ابنة وائل .

وبلغت عنه « عمر » فخاف أن يحرجوه ، وأن يضعف صبره ؛ فيسطو عليهم ؛ فعزله وأمر عليهم « فرات بن حيان » و « هند بن عمرو الجملي » وخرج « الوليد » واستودع إبلاً له « حريث بن النعمان » أحد بني كنانة بن تيم من بني تغلب ؛ وكانت مائة من الابل فاختانها بعدما خرج الوليد [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٥٥ ـ ٥٦ .

محتويات الكتاب

الفصل الثاني : « أبو عبيدة بن الجراح » وفن الحرب

الفصل الثالث : قيادة أبو عبيدة بن الجراح

صدر عن دار النفائس للمؤلف

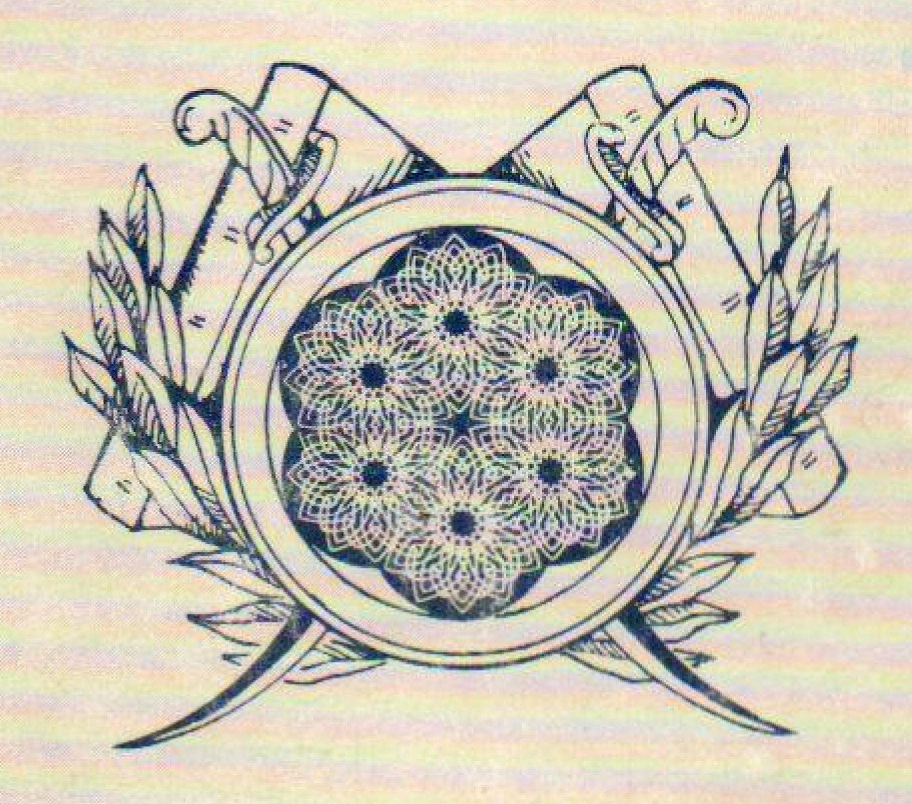
أ - الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية.

ب - مشاهير قادة الاسلام

١ - عقبة بن نافع
٢ - موسى بن نصير
٣ - قتيبة بن مسلم الباهلي
٤ - سعد بن أبي وقاص
٥ - عمرو بن العاص
٦ - أبو عبيدة بن الجراح
٧ - خالد بن الوليد
٨ - معاوية بن أبي سفيان
٩ - صلاح الدين الأيوبي.
١٠ - المظفر قطز وعين جالوت
١١ - الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة
١٢ - عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
١٣ - عبد الرحمن الناصر لدين الله
١٤ - الحاجب المنصور
١٥ - المعتمد وابن تاشفين

ج - جهاد شعب الجزائر

١ - خير الدين بربروس
٢ - الجزائر والحملات الصليبيه
٣ - المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي
٤ - الأمير عبد القادر الجزائري
٥ - محمد المقراني (وثورة ١٨٧١ - الجزائرية)
٦ - الأمير خالد الهاشمي الجزائري
٧ - عبد الحميد بن باديس
٨ - الصراع السياسي على نهج الثورة الجزائرية
٩ - الله اكبر - وانطلقت ثورة الجزائر
١٠ - جيش التحرير الوطني الجزائري والصراع المسلح
١١ - أيام جزائرية خالدة
١٢ - المجاهدون الجزائريون - وتطور الصراع المسلح
١٣ - المجاهدة الجزائرية - والارهاب الاستعماري
١٤ - الاستعمار الفرنسي في مواجهة الثورة الجزائرية
١٥ - جبهة التحرير الوطني الجزائرية -



دار النفائس ص.ب ١١.٦٣٤٧ هاتف ٣.٢٥٣٨ ـ بيروت